الأعمال الكاملة

أبو المعاطى أبو النجا

المجلد الأول

- فتاة فى المدينة
- الابتسامة الغامضة
- الناس والحب

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٢

فتاة في المدينة
١٩٦٠

فتـــاة فى المدينـــة

لا ... ليس ما تحس به هو انها تكاد تغرق . فالاحساس بالغرق حاد ولكنه قصير ينقذنا منه ذلك الموت الحاسم الذى يتسرب الى الجسد مع المياه من الفم والأنف والأذن . ومع ذلك فقد كان الاحساس بالغرق هو أوضح ما يمكن أن تعبر به عما تحسه ، فقد كانت تشعر أن الاشياء من حولها رطبة كالمستنقع ، وأن قوى هائلة تتجاذبها كالموج ، وأنها لا تكاد تملك أمر نفسها كالغريق .. !

***

ـ تفضلى يا مدموازيل ...

وشاعت فى الوجه الصغير موجة من الكبرياء الحانقة ، وظلت واقفة ، وبهزة رأس خفيفة متمنعة فهم الشاب أن الآنسة ترفض أن تجلس فى المقعد الذى تركه من أجلها ، فعاود الجلوس وقد أحس بحرج بالغ . وسرعان ما خبأ وجهه بين صفحتى جريدته كأنمـــا

ليقطع الصلة بينه وبين العيون التى أحس بها تنظر اليه فى سخرية واشفاق معا ...

أما هى فقد كانت مسحة من العناد تغلف ملامح وجهها الفاتنة فتزيده فتنة وقسوة معا . وبين لحظة وأخرى كانت تهز رأسها كأنما لتنفض عنها نظرات الركاب التى كانت تحس بها ثقيلة كريهة كالذباب ...

ـ القصر العينى ... ياالله ... بسرعة من فضلك ...

وانقطع صوت الكمسارى . وهبط بعض الركاب . وخلت بعض المقاعد . وكان من بينها مقعد الشاب الذى دعاها للجلوس منذ حين ، ومع أنه كان أقرب اليها من أى مقعد آخر ، فقد تركته لتحتل مكانها الى جوار كهل كان يقرأ جريدة الاهرام . وأحست بعد لحظات قصيرة أن عينى الكهل تتسللان الى وجهها من وراء منظاره فى وقاحة وضعف ، ثم وقفت العربة فجأة فى المحطة التالية فأحست بكتفه تصدم جسدها بفعل الوقوف المفاجىء . ومع انها لم تكن محطتها فقد نزلت . لم تعد تطيق العربة ولا الركاب ولا عيون الذباب ولاجريدة الأهرام . وحين احتواها الشارع أحست بنوع من الهدوء يتسرب الى نفسها ونظرت فى ساعة يدها ... لا يزال هناك بعض الوقت . يمكنها ان تتمشى قليلا قبل أن تذهب لتشاهد حفلة العرض الصباحية بسينما « الشرق » . وبدون قصد تقريبا وجدت نفسها تسير فى شارع هادىء نوعا ما ... كانت تكره الشوارع المزدحمة بالناس والعربات المكتظة بالركاب . ولا تدرى لماذا عادت الى مخيلتها فى تلك اللحظة صورة الركاب وفى مقدمتها صورة الشاب الذى ترك لها مقعده ... وكأنما أسفت لما حدث . كان وجهه ودودا ... وأخجله رفضها ... أتراها كانت قاسية ؟ وأحست بموجة من الضيق تكتسح نفسها ... كم تكره فى نفسها هذا

الضعف ! ٠٠ كلهم كلاب ٠٠٠ كلاب ٠٠٠ ولفحت وجهها خفقة من النسيم ٠ فارتجفت تلك الخصلة المدلاة من شعرها الناعم وومضت عيناها العسليتان ببريق خاطف هو مزيج من الثقة والخوف ٠ لم تكن تخاف شيئا معينا ٠ ولم يكن بينها وبين هذا الشاب ما يدعو الى الخوف ٠٠٠ كان واحدا من هؤلاء الذين تجمعنا بهم المصادفة فى عربة أو قطار ٠ ومع ذلك فقد كان يجثم فى أعماقها شعور غائم بالخوف ٠ الخوف الذى يثيره فى نفوسنا اننا لا نثق بالأشياء التى حولنا ٠٠٠ كانت تشعر أن الأشياء من حولها ليست كما تبدو لاول وهلة ٠٠٠ كلمات الناس ٠٠٠ حركاتهم ٠٠٠ بسماتهم ٠٠٠ كل ما يفعلون ٠٠٠ كل هذه الاشياء جدران لا نبصر منها سوى ناحية واحدة ٠ ويظل فى الناحية الأخرى شىء لا يمكن ان نراه ٠ ويبقى ذلك الشىء يثير فينا الخوف الذى يبعث بدوره قدرا من الثقة ٠٠٠ !

ومع ذلك فهى تذكر جيدا أن هذا لم يكن شعورها حيال الأشياء قبل ان تلتقى (بفهمى) ٠ كانت قبلها لا تدرك سوى ان للأشياء وجها واحدا هو ماتراه العين لأول وهلة ٠٠٠ واصطدمت قدمها بكرة صغيرة من المطاط كان يلعب بها فى الشارع ولدان ٠٠٠ لا ٠٠ بل ولد وبنت ٠٠٠ لعلهما اخوان ٠٠٠ لايهم ٠٠٠ وظلت سائرة وعادت بخيالها الى (قصة فهمى) ٠٠٠

كانت فى طريقها الى المدرسة حين تطوع لها فهمى بمقعده فى العربة وجلست شاكرة ٠ وكان فى يده هو الآخر حقيبته المدرسية فحملتها عنه وتبادلا كلمات قصيرة لم تكن تعرف قبلها أن هذا الشاب الرقيق الذى ترك لها مقعده يسكن قريبا من منزلها ٠٠٠ لم تكن وقتذاك تفهم للاشياء أكثر من معنى واحد ٠ لقد ترك مقعده ٠ وتحدث اليها فى رقة ٠ وحياها وهى هابطة ٠ ما معنى كل هذا ؟ وفى المرات التالية لم يترك لها مقعده لأنهما كانا يجلسان معا ، تحدثه عن مدرسة الرسم ، ويحدثها ، عن مدرس الانجليزى ، وتتفرج على

كتبه ، ويتفرج على كراساتها · لقد احبته ولم تكن تحبه وحده ، بل كانت تحب العربة ، والركاب والمحطات التى تعدها كل صباح وهى ذاهبة الى المدرسة ، والكمسارى اللبق الذى يتجاهل يدها الممتدة بثمن التذكرة ليأخذ ثمنها منه ···

كانا حبيبين ··· لا تدرى كيف أحبته هكذا بدون ان تشعر ؟ كان كل شىء فيه يدعو الى الحب ··· عيناه الثرثارتان بما لايحب ان يسمعه الركاب ، ابتسامته الماكرة حين يلقاها فى الطريق مع أمها فلا يستطيعان سوى تبادل البسمات ··· جبهته السمراء التى يختفى نصفها تحت خصلة الشعر المتهدلة برغمه · قامته الرياضية التى تكاد تخفيها عن الركاب حين تجلس بجواره ··· لون سترته البنى الداكن ، رباط عنقه الاحمر · حتى حقيبته ··· كانت تحبها ··· كانت تضمها الى صدرها كطفل حين تحملها عنه فى العربة · لقد كانا يخرجان خلسة فى بعض الاحيان ، ويتحدثان فى امور كثيرة ·· ولكنهما لم يتحدثا يوما عن الزواج · كانت تعتقد انه من العيب أن تتحدث فتاة فى أمر كهذا · وان الفتاة الكريمة لا ينبغى ان تتحدث فى مثل هذه الشؤون · كانت تعتقد انه هو الذى سيثير هذا الموضوع فى الوقت المناسب ، فهى لم تكن تجهل انه لا يزال طالبا وانها لا تزال صغيرة · ودوى خلفها صوت بوق ومرت بجوارها سيارة انيقة يقودها شاب · كانت السيارة قد هدأت من سرعتها بالقدر الذى يسمح للشاب ان يهمس ببضع كلمات لم تسمعها بوضوح وان كانت فهمتها بصفة عامة واحمر وجهها · وتعثرت خطاها · ووقفت تماما حتى تبتعد العربة · ماذا يظنها هو الآخر ؟ كلهم هكذا ··· كلاب ··· كلاب ··· لم تكن تعرف ذلك تماما قبل ان تنتهى علاقتها (بفهمى) على هذه الصورة العجيبة ··· لم يتخاصما ··· لم يحدث بينهما شىء يمكنه ان يتسبب فى انهاء علاقتهما بتلك الصورة القاسية ···

كانت تظن ان نجاحهما فى نهاية العام الدراسى يعنى بالنسبة لهما شيئا كبيرا · يعنى خطوة الى المســـتقبل الجميل ··· ولكن الذى حدث هو انه سافر الى بلدته فى الاجازة ولم يعد ··· لم يعد حتى الى البيت الذى كان يسكنه · فقد سكن مكانه فى العام الجديد طالب آخر ··· ذهب بدون ان يودعها · بدون ان يفعل شيئا يجعلها تحس ان كل ما كان بينهما لم يكن حلما باهتا لا ظل له ! ماذا كانت هى بالنسبة له ؟ ماذا كان معنى علاقتهما ؟ انه لم يقل شيئا ! لم يحاول حتى ان يكذب ! ومع ذلك فقد ظلت فترة طويلة تعيش فى هذا الحلم مغمضة العينين ··· كانت تود ان تلقاه مصادفة كما لقيته أول مرة · لتقول له انه حقير وتافه · وانها لم تعد تحبه · ولكن القاهرة كبيرة جدا الى الحد الذى لا تسمح فيه بتكرر المصادفات ·! ومع ذلك فقد ظلت تقولها ، تلك الكلمة ، انت حقير وتافه ··· تقولها فى صمت لكل من يحاول أن يترك لها مقعده فى العربة ·· !

***

ـ ها ··· ها ··· ها

والتفتت نوال خلفها ··· كانت هناك شلة من الشباب تقترب ، تسبقهم عاصفة من الضحك ···

ـ ماشيه لوحدك ليه ؟ هو القمر بيطلع بالنهار ؟ ياترى انت رايحه لمين ؟ يا هنا الموعود !

ولم تعد نوال تميز الاصوات ··· واحست كأنها تجر قدميها · كانت مرتبكة · كانت تحس بلذة لا طعم لها ··· لذة بغيضة · لم يكن بمقدورها أن تتكلم أو تقف ··· متى سيســـكتون ؟ الطريــق خالية الى حد ما وهذا مما يشجعهم ·· ! ورفعت رأسها حين لـم تعد تسمع شيئا ·· ! وبلا وعى وجدت أعماقها تتساءل ··· أين ذهبوا ؟ لقد افترق طريقهم عن طريقها ··· الطريق وحده هو الذى

جمعهم ، المصادفة وحدها ... لو ان فتاة أخرى كانت تسير مكانها لما تغير شيء ! وحاولت عبثا ان تبلع ريقها .. كان جافا .. كانت تشعر بمرارة قاسية ... وشحب لونها ... كلهم هكذا ... ومرة اخرى بدأت تحس بالخوف يتسلل الى نفسها فى قوة ... لا ... لا ينبغى ان تخاف ... انها طالبة .. وحين تفرغ من دراستها لن تكون فى حاجة الى أحد ... وارتسمت على شفتيها بسمة مرهقة ، كانت تعبر عن الخوف اكثر مما تعبر عن الثقـــة . فعلى حافـــة المستقبل ... فى الطريق .. وفى الترام ... وفى العربات وحتى فى مكان العمل ... كان يتراءى لها اطياف رجال . يبتسمون دائما فى رقة ، وتنساب من شفاههم الكلمات العذبة التى لاتعنى شيئا . وبدا لها المستقبل رهيبا بدون رجل تثق فيه ... وبدأت تشعر ان السير فى الشارع أمر قاس جدا . ولم يكن الشارع خاليا تماما .. فبعض الفتيات يلعبن على الحبل « النطه » وتنفرج بعض النوافذ عن حبل تدلت فى نهايته سلة صغيرة يضع فيها بائع الفول الاخضر ما تريده السيدة التى تساومه من الطابق الثالث . وخادمة صغيرة لا تكاد تبصر الفتيات يلعبن على الحبل حتى تقف قليلا تتفرج ثـم لا تلبث ان تمضى بما اشترته من البقال قبل ان تشعر سيدتها بتأخرها وبجانب الحائط وقفت قطة بيضاء تتمسح بالارض وترمق بائع الفول الاخضر فى بلاهة ... اما نوال فكانت تبصر كل هذه الاشياء دون ان تعيها تماما .. !

***

الظلام يسود قاعة العرض . والموسيقى التصـــويرية تهيىء المشاعر لموقف غرامى تلقى فيه بطلة الفلم حبيبها بعد غيبة طويلة ... ثم يلتقى الحبيبان وتغمض نوال عينيها على ذلك المنظر الفاتن وتجتاح اعماقها مشاعر غامضة تستسلم لها فى نشوة حلوة . ولكنها لا تلبث ان تفتح عينيها فى دهشة ، حين تحس ان يدا تلامس يدها

... وأدركت فى لحظة أن المقعد الذى كان خاليا بجوارها قد جلس فيه صاحب اليد الممتدة . لم تثر . لم تنبس شفتها بكلمة واحدة . ولكنها تمالكت نفسها تماما . وسحبت يدها من يده وغادرت مقعدها ... لم تكن تظن ان وجهها قد شحب الى هذا الحد قبل ان تبصره فى احدى المرايا بمدخل السينما ... وجلست بالاستراحة المعدة للرواد ... كانت منفعلة جدا . لم يكن بمقدورها ان تواصل السير . لقد احست بهوان عجيب . لم يكن يفزعها ما حدث فى ذاته . وانما ... ولم تخجل هذه المرة من مواجهة مشاعرها فى صراحة ـ وانما يفزعها أن يحدث بهذه الصورة ... انهذا الشاب لا يعنى شيئا ... فهو لا يعرفها . ولم تكن بالنسبة اليه سوى مصادفة سعيدة يشكر عليها الحظ .. الحظ الذى جعل مقعدها بجواره ... انه لا يعنيه منها سوى انها فتاة تبهج حياته لحظة . انه لم يأت الى هنا من اجلها هى . انها لا تنكر ان اعماقها كانت تحلم بشىء كهذا حين اغمضت عينيها على ذلك المنظر الفاتن. أن يكون بجوارها رجل . تلتصق به وتدفن يدها فى يده . رجل جاء معها ، جاء من اجلها . اما ان يحدث الأمر كذلك ، فهذا ما يثير فى وجدانها شعورا بالتقزز . بالهوان . لا . لن تسلم نفسها بهذه السهولة لمخلوق . انها ، انها ليست شيئا .. واحست فى عينيها نداوة الدموع . وتماسكت قليلا حين انحنى امامها (الجرسون) يسألها عما اذا كانت تريد شيئا . وطلبت كوبا من شراب الليمون . لم تكن تقصد شيئا معينا ، لقد ذكرت اقرب شىء الى لسانها . كانت تريده ان يمضى . لقد احست بكراهية له . كان هو الاخر يتكلم برقة زائدة وينحنى اكثر من اللازم . كلهم زائفون . كيف تعود الى البيت ؟ النقود التى معها لا تكفى لاجرة تاكسى . لقد بدا الأمر صعبا الى حد كبير .

الطريق ملىء بالرجال والعربات العامة والترام . فى كل مكان يوجدون دائما . وعاد الجرسون وفى يده صينية انيقة وفوقها كوب

من عصير الليمون · وكانت وهى تشرب تحس بعينيه المتهرئتين تتلصصان فوق جسمها فى فضول · وفى سرعة راحت تجرع الكوب حتى نهايته · وغادرت السينما · وحين وضعت قدمها فى بداية الطريق احست انها تكاد تغرق · لا « ليس ما تحس به هو انها تكاد تغرق · فالاحساس بالغرق حاد ولكنه قصير ينقذنا منه ذلك الموت الحاسم الذى يتسرب الى الجسد مع المياه من الفم والانف والاذن · ومع ذلك فقد كان الاحساس بالغرق هو اوضح ماتستطيع أن تعبر به عما تحسه ، فقد كانت تشعر ان الاشياء من حولها رطبة كالمستنقع وان قوى هائلة تتجاذبها كالموج وانها لا تكاد تملك أمر نفسها كالغريق ! »

تجربـــة مع المـــوت

« هناك فى الحياة أشياء كثيرة يمكن أن نحددها وأن نؤكد موقفنا حيالها · فبمقدور انسان ما ان يرفض ثروة مفاجئة أو يضع حدا لقصة حب أو ينفق جزءا من حياته عبدا لفكرة أو شخص ·· ولكننا حيال تجربة واحدة ، تلك التجربة التى نواجه فيها الموت بنوع من الاختيار لا يمكننا ان نحدد شيئا أو ان نؤكد موقفا ، لأن المشاعر والافكار تنبعث من داخل التجربة وتتحدد بشكل نعجز حتى عن ان نحدس به ، ونتساءل دائما ونحن داخل التجربة وحتى بعد ان نخرج منها كيف كان ذلك ، واحيانا قد لا نظفر بجواب · » ·

***

كانا يتحدثان ، وقد افترشا قطعة كبيرة من المشمع ، وفك كل منهما بندقيته الى أجزاء يسهل تنظيفها ، وبينهما جردل صـــغير ملىء بالكاز ، يغمسان فيه بين لحظة واخرى قطعة القماش التى تستعمل فى التنظيف · وفوق الارض الرملية التى جلسا عليها كان

يمتد ظلان يحجب احدهما مساحة من الارض اوسع مما يحجب الآخر ، وبينما تبدو المساحة الكبرى هادئة تميل الى الاستقرار كانت المساحة الاخرى تبدو متحركة لا تكاد تستقر ٠٠ !!

كنت انا صاحب الظل النحيل المتحرك ٠٠ وفى اللحظات التى كان ينقطع فيها الحديث مع صديقى ، كنت أعدو بخيالى الى أرض المعركة التى سنخوضها بعد ايام ضد الاعداء ٠ كنت اجد لذة غريبة فى تلك الصور التى يرسمها خيالى للمعركة التى سنصفى فيها حسابنا مع اسرائيل ٠ على اننى اكون أقرب الى الحقيقة اذا ماقلت ان هذا الاحساس السار لم يكن هو ما شعرت به فى البداية ، اعنى فى صباح الاربعاء الذى ذهبت فيه الى الكلية لأجد فوق لوحتها الاخبارية تلك العبارة : « قف فالوطن يناديك ٠ بادر بالتطوع ٠ التخلى عن المسؤولية جريمة ٠ » لقد احسست وقتها انه ليست قدماى وحدهما هما اللتين توقفتا وانما كل حياتى ، كل مشاريعى للمستقبل ، كل ذلك قد توقف واستدار الى ناحية اخرى يكمن خلفها المجهول ٠ وغمرنى شعور رهيب بالقلق ٠٠ ثم لم يلبث ذلك المجهول ان تكشف عن معسكر بمدينة بور سعيد يموج بمئات من الشبان وبملابس صفراء وبنادق واصوات آمرة ووجوه تضحك فى صلابة وانا وصديقى صبرى ٠

وفى لحظات الراحة كنت أجلس مع صبرى ننظف البنادق ونثرثر ٠ اما فى فترات الصمت التى قد تتخلل الحديث ، فكنت أقفز بخيالى الى أرض المعركة ٠ لم اكن قد شهدت حربا من قبل ٠ كنت اتصور نفسى أزحف فى الرمل ويداى مشدودتان على البندقية، وعيناى تخترقان الظلام ، واصوات الرصاص تمزق السكون حولى ، وانا اعوق زحف الاعداء ، واحيانا كنت اتمادى فى الخيال فاتصور ان رصاصة اصابتنى واننى احس دمائى تنزف وتصبغ ثيابى

وخواطرى بلون احمر · ومع ذلك فقد كنت اســـتمر فى اطـــلاق الرصاصات·فالرصاص يعوق زحف الاعداء حتى ولو كان الذىيطلقه يطلق معه آخر انفاسه · كنت أجد لهذه الصورة الاليمـــة جمالا خاصا ، واحس فيها لونا من النبل لايوصف · ولم تكن هذه الصور تفارق خيالى فى لحظات الصمت العارضة خلال اى حديث · كنت اتمنى ان افرغ من التدريب حتى احمل بندقيتى واخرج لاوقف زحف العدو ، ولكن الاحداث كانت تتطور باسرع مما كنت اتصور · لقد حملت الانباء أول بلاغ حربى عن اشتراك انكلترا وفرنسا فى المعركة ضد مصر · ولم يغير النبأ كثيرا من موقفى حيال الصورة التى كنت لازال اعيش فى جوها الغريب · وقلت لنفســى : ماذا يتغير فى الموقف حين يشترك كل هؤلاء الاعداء ؟ لاشىء · فاذا كانت قمـــة المأساة ان يموت الانسان فان الموت لا يختلف ــ حين يقاتل ضد دولة أو عدة دول ، لايهم ، مادام الموت نفسه لم يعد امرا مخيفا ! الحق اننى حتى تلك اللحظة لم اكن قد خضت تجربة مع الموت ، ولم اكن قد رأيت ظله على وجه انسان ·· ولكن الذى كنت اعرفه تماما ان علينا ان نقاتل مادام الاعداء قد وضـــعوا قضـــية حياتنا فى هذا المستوى الذى يفقد فيه الاختيار كل معناه · ! كان المــوت لا يزال يبدو دائما فى تلك الصورة التى لا تخلو من ســحر ومن خواطــر تتناسب مع الدماء النازفة ·· وعيون تمتص فى نهم وقبل ان تغمض كل جمال الحياة · !

ــ سنقاتل ، أليس كذلك ياصديقى صبرى ؟ سنقاتل الى آخر قطرة من دمائنا !

نطقت بهذه العبارة دون ان أرفع رأسى عن اجزاء البندقيــة المبعثرة أمامى ، ودون ان أرفع رأسى أيضا سمعت صوت صبرى :

ــ لن نكون وحدنا ياعزيزى · سيقاتل معنا كل الاحرار فى العالم ، ويضحك صبرى وهو يقول : ــ ان تقدم وسائل المواصلات

فى العالم هو الذى سينقذنا ، لاتضحك فبدون تقدم هذه الوسائل كان من الممكن أن تستبد الدول الكبرى بالشعوب الصغيرة كما كانت تفعل فى الماضى ، ان المواصلات لاتنقل فقط البضائع ولكنها تنقل أيضا الافكار · ان الافكار التى تدافع عن السلام وعن حرية الشعوب الصغيرة هى التى سوف تساعدنا ، لأن هذه الافكار توجد داخل رؤوس ، وحين تتحرك هذه الافكار تتحرك معهـــا هذه الرؤوس · افهمت ؟ انا لا اخاف لهذا السبب · اننا لن نقاتل كل هؤلاء الاعداء وحدنا !

كنت أعرف أفكار صديقى جيدا ، والحق انى كنت اختلف عنه كثيرا ·· كان يعرف جيدا وقائع التاريخ وحقائق الجغرافيا ، ويلذ له دائما أن يتحدث عن جدوى تقدم المواصلات فى العالم ، الشىء الذى لم أكن اطيق الاستماع اليه كثيرا · كنت احب الأدب واتذوق كل ما فى الحياة من شعر · وكنت أحب أيضا صـــديقى صبرى · كانت علاقتى به حصيلة عشرة اعوام من الزمالة الطويلة فى المدرسة والكلية والبيت والشارع · وكان صبرى فى تلك اللحظـة ينظف ماسورة البندقية وقد انكفأ برأسه الى الامام فغطى شعره أعلـى جبهته وبدت اصابعه الغليظة وهى تقبض فى صلابة على البندقية ·· ورفع صبرى رأسه فبدا وجهه الممتلىء يتألق بنظرة جادة صارمة ، وقال :

ـ اسمع ·· ساقول لك شيئا ·· أنا سعيد بهذه الحـرب ، لا تدهش · نحن شعب فى حاجة الى ان نخوض هذه التجربة · هذا ما كان ينقصنا منذ زمن بعيد ·· ان الشخص الذى يحمل البندقية ويأتى الى هنا ليواجه الموت يتبدل شخصا آخر تماما ·· ان حياتنا فى هذه البقعة من العالم يقتلها ذلك الطابع العجيب : طابع الهدوء والامن والرتابة · ان كل شـــىء هنا هـــادىء ، الطبيعة والأرض والناس · تصور انت طريقة مواجهتنا للمشكلات ، اعنى انت وأنا ·

هل تذكر نوع المشكلات التى تؤرق حياتنا فى الأشهر الماضـــية ؟ تأملها الآن : هل تساوى واحدة منها ان نفقد حياتنا ؟ ان وزنهـــا يخف ياصديقى ، اننا حين نواجه الموت نعيد تقديرنا للاشياء والناس وغالبا ما نكتشف ان مخاوفنا الماضية لـم تكن تليق ابدا بكبريائنا البشرية ، تلك الكبرياء التى لا نكشفها الا فى تلك المواجهة · اننـا هنا نكشف امكانياتنا · ان الذين يعودون من الحرب غالبا ما يبدأون حياة جديدة ، حياة يشعرون بقيمتها · اننا يجب ان نكتشف قيمـة حياتنا من خلال هذه التجربة وأن ··

ولم يتم صديقى حديثه فقد انطلقت صفارة الانذار تعلن عن بدء غارة جوية ، ولم نكن قد اعدنا تركيب البندقية ، وهممت بالتحرك للجوء الى المخبأ القريب ·· وهمس صديقى :

ـ لا تخف ، سوف أعيد تركيب البندقية بسرعة ·· ان هذه الغارة فى طريقها الى القاهرة ، ان دورنا لم يأت بعد ·· ثـــم ان الغارات قد اصبحت شيئا طبيعيا يجب الا يقطـع مثل هذا الحديث ·

كان صديقى يعمل بسرعة لانهاء تركيب البندقية ·· أما أنا فقد كنت ارقب هدوءه بغيظ وصمت « دعها يا أخى ، سوف نعود بعد انتهاء الغارة » وقبل ان اتم عبارتى كنت اهرول نحو المخبأ · اكنت جبانا اذ ذاك ؟ لست أدرى فقد خيل الى أن عينى صـــديقى كانتا تقولان ذلك حين التفت اليه لأطالبه مرة أخرى بأن يسرع قبـل ان اغيب فى المخبأ !

لازلت أذكر كل شىء · فقد بدأ صوت الطائرات المغيرة يختلط بطلقات مدافعنا المضادة · وبدا واضحا ان بور سعيد هى المقصودة فى هذه المرة ·· كانت طلقات المدافع تشتد ودوى الطائرات يقترب ، وعيناى مثبتتان فوق مدخل المخبأ فى انتظار صديقى · وفجأة دوى صوت انفجار هائل ، وللحظـات لم أكـــن أشعر بشـــىء · كانت

الانفجارات تتتابع وكنت عاجزا عن وعى الموقف · لقد تصلبت يداى فوق الكتف المجاورة لى وتحولت الى شىء ·· شىء يمكن ان يشعر به أى كائن سواى ·

ومرت لحظات رهيبة كنت خلالها قطعة من الرعب · وظلت عيناى مغلقتين بيد اننى لازلت اذكر شيئا ·· اذكر ان أول ما رأيت حين اغمضت عينى كان صديقى وهو يحاول ان يعيد تركيب البندقية ·· لماذا لم يعد ؟ لعله عاد · ولم اجرؤ على فتح عينى حتى لا أتأكد من أن صديقى لا يزال فى الخارج ··كانت الانفجارات لاتزال تتتابع · وكنت فى كل لحظة اتحسس الكتف المجاورة لى وبدأت احس ان أرض المخبأ صلبة تحت قدمى وانها لن تسمح لنا أبدا بأن نختبىء فى داخلها اكثر ·· ولم أعد أشعر بالزمن ، فقد كنت اكتشف باستمرار اننى لا ازال حيا لا أدرى كيف مر بنا الزمن ! فحين اطلقت صفارة الامان تعلن انتهاء الغارة احسست كأننى أوشك ان أسقط فى هوة عميقة · لقد كنت قبل لحظة أحس بأننى تحولت الى جزء من هذه الكتلة البشرية التى جمدها الخوف · وحين انتهت الغارة بدأت هذه الكتلة تنحل الى أفراد يغادرون المخبأ ، اما أنا فبدأت اتهاوى فوق الأرض · وخلا المكان ولم أجرؤ على الخروج ·· لقد تذكرت صديقى ولم أكن فى حاجة الى أن استنتج أنه بقى فى الخارج ، وكنت أبصر الأشياء خارج المخبأ فى وجوه رفاقى الذين خرجوا ·

لايمكن ابدا ان أنسى هذه اللحظة ، ولا هذه الوجوه · كان احساسى بالعار والخجل أعظم من ان يذوب احساسى بأننى لا ازال حيا · ربما كان هذا هو الذى دفعنى لكى اخرج فى النهاية ، لكى اتعذب برؤية الاشياء فى الخارج · وجررت قدمى · ولأول وهلة لم اتمكن من رؤية شىء فى وضوح ، لقد غرقت فى طوفان من الأشياء المختلطة · « حذار من القنابل التى لم تنفجر ·· هناك طريق من

الناحية الاخرى · لقد نسف خرطوم المياه فى المعسكر ، المطافىء فى الطريق » ··· وشيئا فشيئا بدأت ادرك الأشياء فى وضوح ·· بدأ الطوفان ينحسر · وكان أول ما انطبع فى نفسى اننى فى مكان آخر غير الذى كنت فيه قبيل الغارة · كانت معالم المكان قد تغيرت تماما وتحولت أرض المعسكر الى حفر ضخمة تحجبها عن الأعين «اكوام» من التراب · وكانت مبانى المعسكر قد تحولت الى حطام · وكنت منذ البداية أفتش عن المكان الذى تركت فيه صديقى · ولم أجد المكان : كان قد تحول هو الآخر الى حفرة ضخمة ولم اجرؤ على ان اقترب من الحفرة · وتحدث فى داخلى صوت مرير · « اذا لم يكن صبرى فى اى مكان آخر من المعسكر فلن اذهب تجاه الحفرة » · وفتشت فى المعسكر كل مكان آخر ولم أجد صبرى ، وفى خطوات ذاهلة عدت لأستجيب لأوامر القائد الذى راح يعدنا لمواجهة الموقف · كنت انفذ الأوامر فى ذهول ··· كان الأمر بشعا ·· كانت تلك أول تجربة مع الموت · واحسست بسخف أفكارى عن الحرب · وبدت لى صورة « البطل الذى يزحف فوق الرمال » مضحكة الى حد كبير · لاشك أن البندقية سلاح انسانى يسمح للمحارب بأن يموت فى بطء وبأن يجد وقتا يدرر فيه موته ويتذوق فيه معنى كفاحه وان يودع الحياة بنظرة ··· ان صبرى لم يجد مثل هذا الوقت · لقد تحول فى لحظة الى لا شىء ·· واحسست بسخط هائل يجتاح نفسى وكره عميق أسود · لماذا ؟ وعلى اى شىء ؟ ·· فى تلك اللحظة لم أكن ادرى · فقط كنت أحس أننى أكره كل العالم ، حتى ··· نفسى ·

***

لم يكن ما اشعر به فى تلك اللحظة هو الخوف ··· كان شيئا آخر تماما ، كنت جائعا ! وبدأت أتذكر اننى لم أذق طعاما منذ ·· لا أكاد أذكر · لم أكن أتصور أنه من الممكن ان يشعر الانسان بالجوع فى مثل هذه الظروف · لم أكد أحاول القيام حتى أحسست بمعدتى

كأنها قطعة من الفراغ فى داخلى ... كان توازنى يختل ، وتهاويت فوق قطعة من الحصير التى كنت ممددا فوقها ونسيت ساقى تماما ، نسيت انها ما كان بمقدورها ان تحملنى لو حاولت القيام ، وتلفت حوالى : كان كل شىء كما هو ـ منذ غفوت . كانت عيناى قد الفتا الظلام وحفظتا مكان كل شىء فى الحجرة الصغيرة المعتمة ، واطمأننت الى أن أحدا لم يأت الى هنا . وابتسمت لسذاجة خواطرى، فلا ريب أنه لو قدم احدهم الى هذا المكان لما استيقظت الى الأبد ..! وامتدت يدى الى البندقية المجاورة وحاولت ان أحرك ذراعها فلم أستطع . كانت صلبة تماما . لا بد أن مجرى الذراع قد تلوث بالغبار ، ومع ذلك فقد كنت استعملها بسرعة جدا ونحن نصطاد جنود المظلات فى الجبانة والغبار يملأ حتى عيوننا . وبدأت أدرك اننى مرهق تماما . كانت البندقية تثقل على ذراعى فالقيتها جانبا وفى تلك اللحظة فقط شعرت بالخوف .. خيل الى انهم لو هاجموا هذا المكان لما تمكنت من الدفاع عن نفسى ، وبلا شعور عدت أجذب البندقية الى جوارى مرة أخرى !

وعاودنى الاحساس بالجوع حادا هذه المرة ، واحسست فمى جافا تماما . متى يأتى حسن ؟ من الجائز ان شيئا اصابه ؟ انه أمر مفزع حقا ألا يأتى هذا الصبى . لاريب أنه تأخر جدا عن موعده . ومن الممكن ان يحدث أى شىء .. ان يكون حسن قد اصيب وأن استمر هنا حتى أموت جوعا . وعاودنى الاحساس بالخوف . انه من المخيف جدا ان يشعر الانسان انه لم يعد متأكدا من شىء ، وان الأشياء القادمة سوف تقع بمحض المصادفة . ووجدتنى بلا شعور ابتسم .. خيل الى اننى كائن يدعو الى الضحك . لماذا أفكر بهذه الطريقة ؟ لماذا ابدو امام نفسى كفأر محاصر .. ؟ ماذا حدث لى ؟ لاريب اننى اختلف تماما عن هذا الشخص الذى خاض معركة أمس الأول والذى قبله .. لم أكن هكذا أبدا . وتسللت خفقة من الهواء

البارد الى أرض الحجرة من أسفل الباب المغلق ، فشملتنى رعشة طارئة ، وشعرت بآلام حادة تسرى فى ساقى مكان الجرح المضمد ٠ وحاولت ان اتشبث بذلك الشخص الذى خاض معركة أمس الأول والذى قبله وظل يقاتل دون أن يشعر بالدماء تنزف من ساقه ٠٠ كان قويا جدا ٠٠ وظللت اتأمله كما لو كان شخصا آخر تماما ٠٠

***

« كان الجرح ملوثا بالتراب ٠٠ وكان كل مكان يقف فيه يلعق ذلك الجرح ٠٠ لا زلت أذكره وأذكر فى وضوح تلك اللحظات ٠ كان احساسه بالجرح قد تلاشى تماما منذ بدأ يذوب فى تلك الجماهير التى اندفعت فىشوارع المدينة كسيل مجهول المنبع ٠ كان يحس أن هناك كائنا ضخما يملأ شوارع المدينة ٠ كائنا ظهر فجأة وفى كل مكان من المدينة كان يوجد لهذا الكائن الضخم ذراع تقاتل الأعداء فى شراسة ٠ وأحس أنه يتلاشى ، هذا الكائن ، وانه أصبح مجرد ذراع فى جسد هذا العملاق ٠ ربما كانت تلك هى المرة الأولى التى أحس فيها أن بور سعيد ليس مجرد اسم المدينة ٠٠ انه شىء حقيقى ٠٠ شىء ضخم ٠ وبدأ يشعر بنوع من الأمن لاحتمائه بهذا الكائن الكبير ٠٠ كانت بور سعيد كلها تقاتل ٠ النوافذ والحارات والأبواب الموارية والأسطح وبقايا البيوت المهدمة ٠٠ وأحس وقتها أن بور سعيد كبيرة جدا ٠ كانت هناك بيوت كثيرة لا تزال ترتفع فى شموخ ٠ كان يبصرها كلما رفع رأسه ٠ وأذرع لا حصر لها تحمل البنادق ٠ صحيح انه كان يحس بالارهاق فى لحظات خاطفة ، ولكن من المستحيل أن يصيب الارهاق كل هذه المدينة ، انها كبيرة جدا ٠٠ ان بعض رفاقه يسقطون الى جواره ولكن هذه المدينة تبدو شيئا آخر غيرهم ٠ انه لا يمكن أن تموت هكذا كما يموت البشر ٠٠ ان الطائرات تدكها منذ أيام ولكنها تبدو شيئا آخر غير البشر ٠ وأحس بحب عميق لمدينته ٠٠ كانت نظراته تذوب فوقها فى حنان ودوى

الرصاص لا ينقطع لحظـة والأحجار تتطاير فى كل مكان ٠ وكان هناك سؤال يضىء فى رأسه : ماذا بمقدور الاعداء أن يفعلوا أكثر من ذلك ؟ وفى ضوء هذا السؤال كان يدرك أن هناك فرقا هائلا بين أن تحتل مدينة وبين أن تستسلم ٠٠ حقيقة أن دبابات الأعداء تقتحم بعض الشوارع ، ولكن ماذا يعنى ذلك ؟ مادام على هؤلاء الأعداء أن يدافعوا عن كل لحظة من وجودهم ٠ كان قويا جدا ٠ كان يشعر أن أى قوة فى العالم لا يمكن أن تهزم مدينة ٠ ومع ذلك فقد فتح عينيه ذات لحظة ليجد نفسه فى تلك الحجرة المعتمة والى جواره صبى فى الخامسة عشرة من عمره مهوش الشعر يلبس جلبابا قذرا ويتحدث فى صوت خفيض بعبارات مفككة :

ـ أخويا جابك هنا ٠٠ علشان مفيش تفتيش فى الحته دى ٠٠ و ٠٠ ومن خلال كلمات الصبى البطيئة المتقطعة فهم أن حالة اغماء أصابته أثناء المعركة بتأثير الجروح وأن شقيق الصبى حمله الى تلك الحجرة أو تلك الدكانة التى كان يبيع فيها السمك بعد أن ضمد جرحه أحد الحلاقين ٠٠

ـ أخويا جلال بيشتغل صياد ولنا مركب فى البحر ٠٠ وكان بياخدنى معاه جوا البحر نصطاد بالصنارة وفى اليوم اللى كنـا نصطاد فيه كتير ، كان أخويا يدينى حته بخمسه ٠٠

وظل يثرثر عن أخيه وكيف انه بعد أن يفرغ من السمك يروح يشتغل فى المينا ٠٠ أصله ! ٠٠

ـ ويبتسم حسن فى خجل وهو يتابع حديثه : « عاوز يتجوز ، وعاوز يجيب فلوس كتير ٠٠ تعرف مين ؟ سعدية بنت المعلم حسنين صاحب قهوة المنظر الجميل ٠٠ لما كنت أروح وأدى لهم السمك فى البيت ٠٠ كانت سعدية هى كمان بتديلى حته بخمسة ٠٠ » وينسى

الصبى فى غمرة حديثه عن سعدية وجلال كل شىء عن المدينة ..
وعن الحرب .. ولكنه لا يلبث أن يتذكر فجأة أن عليه أن يذهب لأنه
يقوم بنقل الذخيرة الى رجال المقاومة حيث ينتظره أخوه هناك ،
ويصبح من مهمته بعد تلك اللحظة أن يأتى بالطعام الى هذه الدكانة ،
وأن يكون حلقة الاتصال الوحيدة بين هذه الحجرة وبين الحياة فى
المدينة التى تقاتل .. وأغلق حسن الباب خلفه وأدار فيه المفتاح
ومنذ تلك اللحظة لم يعد ..

***

كنت أشعر اننى مختلف تماما عن هذا الشخص الذى كنت
أتذكره .. كأنما اختفى هذا الشخص تماما فى خطوات الصبى
الذى خرج لينقل الذخيرة الى رجال المقـــاومة .. كنت أشعر أن
ظلام الغرفة يثقل على صدرى ويصبغ خواطرى بلونه القاتم . ماذا
حدث لى ؟ لم أكن أتصور انه من الممكن أن تتغير مشاعر الانسان
بتلك الصورة .. كنت عاجزا عن أن أغالب ذلك الخوف الذى بدأ
يستبد بأعماقى .. وتذكرت أمى فى تلك اللحظة .. شعرت برغبة
جارفة فى رؤيتها .. صحيح أننى لم أخبرها بسفرى الى بور سعيد
ولكنها علمت بلا شك .. ترى ماذا تظن بى الآن ؟ وتصورتها فى
طرحة الصلاة البيضاء وهى تدعو لى .. أيمكن أن يستجيب الله
دعاءها ؟ وأحسست بسخافة أفكارى .. فلا ريب أن صبرى تلقى
من أمه دعوات أكثر ، كان ما يفزعنا أنه ليس بمقدورى أن أصنع
شيئا .. اننى ملقى فى هذه الحجرة كقطعة الحصير التى أتمدد
فوقها .. لا ريب انه من المفزع أن يواجه الانسان الموت وهو عاجز
عن الحركة .. لم أكن كذلك وأنا أتنقل بساقى الجريحة خلف بقايا
البيوت المهدمة .. لماذا تأخر حسن هكذا ؟ هذا الصبى اللعين ..
كنت أود أن أراه ليحدثنى أكثر عن أخيه الشاب الذى أنقذ حياتى .
ولكن عودة هذا الصبى أصبحت تعنى لى شيئا أكثر ، أصـــبحت

تعنى كل حياتى ·· تعنى انقاذى من هذا الخوف اللعين الذى يذوب فى ظلام هذه الغرفة ·· هذا الصبى القذر ، ترى لو قابلته قبل هذه اللحظة فى أحد شوارع بور سعيد ، فماذا كان سيعنى بالنسبة لى ؟ ·· لا شىء · وتذكرت ان فى حياتنا أناسا كثيرين قد لا نشعر بمجرد وجودهم ·· هذا الوجود الذى ينتظر فرصة كى يكتسب معنى جديرا به ! ·· وتذكرت كلمات صديقى صبرى : « اننا حين نواجه الموت نعيد تقديرنا للاشياء والناس » ·

ومرة أخرى عادت موجة البرد تكتسح الحجرة الصغيرة ·· ان ساقى تؤلمنى أكثر ·· من المستحيل أن تأتى أمى الى هذا المكان · ان أحدا لا يستطيع لى شيئا سوى هذا الصبى ·· و ·· فجأة سمعت وقع خطوات وصوت مفتاح يدار فى الباب ·· ولم تهدأ ضربات قلبى قبل أن أبصر حسن أمامى ·· كانت عيناى قد ألفتا الظلام وأمكننى أن أميز لأول وهلة سمات الحزن على وجه الطفل وفى عينيه كانت تلمع آثار دموع ·· ايه يا حسن ·· مالك ·· حصل ايه ؟ ··

ـ أخويا !! ·· ماله ؟ ·· مات ! ··

وللحظات لم أتمكن من أن أفتح فمى بكلمة ·

ـ لكن مات ازاى يا حسن ، وفين ؟

ـ ما أعرفش ·· الناس جابوه البيت وهدومه كلها دم ·· وكان بيتكلم ·· قال لى ما تخافش ·· وروح للراجل اللى فى الدكان ·· وهو ! ·· ولم يكمل حسن حديثه فقد أجهش بالبكاء ··

وجذبت الصبى وضممته الى صدرى ورحت أهدئه ·· كانت كلماته تخترق صدرى فى عنف ·· وعجزت عن أن أتكلم ·· وفى تلك اللحظة سقطت من ملابس الصبى صرة صغيرة كان يلف فيها

الطعام الذى أحضره لى ·· لم أعرف من أين ولا كيف أحضره ؟ ووجدتنى أفك الصرة وأضعها أمام الصبى ·

ـ أنت جائع بلا شك ·· كل ·· سوف آكل معك ·· لا تبك ·· لن أتركك · وجلس الصبى ومد يدا مترددة الى الطعام ثم أكل ·· كان جائعا جدا ·· أما أنا فقد فقدت رغبتى فى الطعام ·· كنت أرقب الصبى وهو يأكل ويجفف دموعه أحيانا بظهر يده وأحيانا بشفتيه ·· كنت أتأمل ملامحه لأصنع صورة جلال الذى أنقذ حياتى ومات دون أن أراه ! ·· وسرى فى جسدى تيار حاد من القلق ·· يجب أن أغادر هذا المكان ·· يجب أن يجفف ذلك الجرح اللعين ·· كنت أحس بقوة غامضة تنبعث من جسدى المرهق فى كل ذرة منه ·· كنت أشعر اننى أتحول الى ذلك الشخص الآخر القوى الذى كان يقاتل فى شوارع المدينة كأنما عاد ذلك الشخص فى خطوات ذلك الصبى الذى جاء يبحث عن بديل لأخيه الذى مات ! ·· هذا الموت ·· يا له من ثمن ؟ انه شىء رهيب حقا ·· ان بمقدورنا أن نقتسم البؤس أو الارهاق أو العمل ، أن نتحمل معا أى شىء ·· أما هذا الموت ، فان الموتى وحدهم هم الذين يموتون ، هم الذين يدفعون كل الثمن ·· وبدا لى أن كل ما يمكن أن أفعله لا يساوى شيئا بالنسبة لما فعله صبرى وجلال · لم يكن واحد منهما يعرف الآخر ، ومع ذلك فقد فعلا نفس الشىء كل على طريقته ·· كأنما هناك اتفاق سابق بين كل هؤلاء الذين يموتون من أجل حرية بلادهم فجميعهم فى كل بلاد العالم يصنعون نفس الشىء ·· ربما كان هذا وحده الدليل على أن الحرية هى القيمة الوحيدة فى العالم التى لا يختلف حولها البشر ·

« سوف يخرج الانجليز من بور سعيد » ·· بدأت أشعر أن هذه القضية حقيقية تماما ، كما أن موت صبرى وجلال أصبح حقيقيا ·· وأحسست بالقوة الغامضة تهز كل نفسى ·· لم تكن

قوتى بحال ·· خيل الى أن حياة صبرى وجلال لم تذهب بعيدا ، وانما عادت لتتسرب فى جسدى المنهك ، لتقاتل بكل ما تبقى من أسلحة ! ··

كان حسن لا يزال يملأ فمه بالطعام وعيناه منداتان بالدموع · ما أقدر الأطفال على مواجهة الآلام ! ·· أما أنا فقد كنت أشعر أننى أتحول الى شخص آخر تماما ·· لم أكن أتصور انه كانت تكمن فى داخلى كل هذه القوى ·· يا له من مخلوق ذلك الانسان ·· لا يكتشف قواه الكامنة الا من خلال بعض الأحداث والمواقف ، ولكن أى أحداث ومواقف ؟

«هناك فى الحياة أشياء كثيرة يمكن أن نحدها وأن نؤكد موقفنا حيالها ، فبمقدور انسان ما أن يرفض ثروة مفاجئة أو يضع حدا لقصة حب أو ينفق جزءا من حياته عبدا لفكرة أو لشخص · ولكننا حيال تجربة واحدة ، تلك هى التجربة التى نواجه فيها الموت بنوع من الاختيار ، لا يمكن أن نحدد شيئا أو أن نؤكد موقفا لأن المشاعر نفسها والأفكار تنبعث من داخل التجربة وتتحدد بشكل نعجز حتى أن نحدس به ونتساءل دائما ونحن داخل التجربة ، بل وحتى بعد أن نخرج منها ، كيف كان ذلك ؟ ·

وأحيانا قد لا نظفر بجواب · »

خـــروج عن الموضـــوع

اطبق الاستاذ حسين آخر كراس فرغ من تصحيحه ورمى به فى عصبية فوق ذلك التل الصغير من الكراسات ، واغمض عينيه قليلا ليريحهما من عناء التحديق فى تلك الخطوط المتشـــابكة التى تصر التلميذات على انها موضوعات تحتاج فقط لمجرد التصـــحيح وليس لأن تكتب من جديد ، واشعل سيجارة وراح يجذب منها انفاسا بطيئة ليطيل مرور الدخان فى فمه وانفه فيشعر بتلك الراحة التى تتسلل الى حواسه المضطربة ويعاوده ذلك الهدوء الغامض الذى يشعر معه ان متاعب الحياة لم تعد كما كانت منذ دقـائق : وحين يشعل الاستاذ حسين سيجارة فانه يجب ان يفكر فى أى شىء ، ان يبحث عن موضوع يحتاج الى تفكير عميق ·· وقد كان الاستاذ حسين فى بداية عهده بالتدخين لايشعل سيجارة الا حين يكون مقبلا على التفكير فى مشكلة عويصة · اما الآن ·· فأصبح يجد نفسه مضطرا للبحث عن المشاكل متى اشعل سيجارته ·

ولم يكن الاستاذ حسين هذه المرة فى حاجة الى البحث الطويل . فقد كانت المشكلة قائمة امامه تتحدى خبرته الطويلـــة بالتدريس وتتحدى مسطرته التى طالما حل بواسطتها مشكلات كثيرة ..

لقد بدأ يلاحظ ما يمكن ان يسمى ظاهرة تتكـــرر مع معظـم التلميذات ... انهن جميعا يخرجن عن الموضوع لماذا ؟ لا يدرى .. وما الفرق بين الموضوع الذى يبدأن بالكتابة فيه وذلك الذى يشردن اليه ؟ .. اى شىء يغريهن بذلك الموضوع الآخر ؟؟ لايدرى ايضـا والمشكلة أنه ليس موضوعا واحدا ذلك الذى يشـــردن اليه حتى يكتشف فيه سر تلك الظاهرة ... ان كل تلميذة تشرد فى موضوع خاص وبطريقة خاصة . وعليه هو ان يقرأ كل هذه المواضيع وان يصححها كلها فى صبر واناة ..

واوشكت السيجارة ان تلسع اصابعه فالقى بها الى الأرض وداسها بقدمه .. أوه .. فى كل مرة ينسى ان يشترى « طفاية » للسجاير .. ومعنى هذا ان تظل أرض الحجرة ملأى باعقاب السجاير وان يتعرض لتعليقات الزملاء .. وأن .. كل هذا لا قيمة لـــه .. المهم هو ومشكلة الخروج عن الموضوع .. لقد اختار هذه المرة مع التلميذات موضوعا خيل اليه ان من المستحيل ان تخرج التلميذات عنه لأن الموضوع بطبيعته واسع جدا حتى لايوجد شىء خارجه .. « التحقت هذا العام بمدرسة جديدة اكتبى رسالة الى والدك حدثيه بصراحة عما يعجبك فى هذه المدرسة وعما لا يعجبك فيهـا وعن الصورة التى كنت تودين ان تكون عليها هذه الاشياء التى لاتعجبك » كان يعتقد انه من المستحيل ان تخرج تلميذة عن هذا الموضوع فهى اذا تحدثت عن اى شىء فى المدرسة وبأى طريقة ، ستجد نفسها ـ رغما عنها ـ لاتزال فى الموضوع ومع ذلك ومع تنبيهاته التى تأخذ أحيانا صورة الانذارات ، ومع تأكيد التلميذات له بانهن لن يخرجن

هذه المرة عن الموضوع فقد وجد نفسه وجها لوجه امام كلام غريب لا يمت للموضوع الا باوهى الصلات ٠

« الله يخرب عقولكم » قالها الاستاذ بهدوء هذه المرة ٠ فالعالم بعد السيجارة يبدو افضل بكثير مما كان ٠٠ والمشكلات تبدو أقل حدة ٠٠ وهذا الخروج عن الموضـــوع يبدو احيانا طريفا يغـرى الاستاذ حسين بمعاودة التصحيح ٠٠ وامتدت يد الاستاذ وسحبت كراسا من التل الآخر الذى لم يصحح بعد ٠٠ وتأمل الاستاذ الكراس ذا الجلدة الصفراء الانيقة وقرأ على البطاقة الصغيرة الملتصـقة باعلى الكراس (احلام) وفى لحظة تمثلت امام عينه صورة احلام ، وجه ينضح ببراءة الطفولة وشقاوتها معا ٠ وملامح لاتكف لحظـة واحدة عن التعبير عن شىء ٠ شىء قد يكون عاديا جدا حين تسألها عنه ولكن ملامحها المعبرة تجعله دوما غير عادى ٠٠ لا تكف لحظة عن الثرثرة والحركة ٠ ولا يمكن ان تبدو الا مبتسمة او واجمة ٠ لاوسط بين الحالتين والمصيبة انها ذكية ٠٠ والمعلمون فى كل الدنيا يجاملون الاذكياء ويتحملون سخفهم ربما لانهم العامل الوحيد الذى يجعل المدرس يطيق مهنته ويستمر فى تلك التضحية الغريبة الى ان يكتشف فجأة انه لم يعد قادرا على ان يستمر فى شىء ! ربما كان هذا أيضا هو ما يجعل الاستاذ حسين يتغاضى احيانا عن شقاوتها واوشك بلا شعور وهو يفتح كراستها ان يقول لهـا كالعـــادة ٠٠ « اسكتى يا بنت » ٠

واخرج الاستاذ قلمه الأحمر قبل ان يقرأ « ابى العزيز ٠٠ احييك يا أبى تحية كثيرة واعرفك بالآتى : « التحقت هذا العـــام بمدرسة التجارة الاعدادية للبنات وهى مدرسة جميلة جدا يا ابى وعلى شارع البحر الذى كنا نمشى فيه للنزهة ٠ فاكر ياأبى الايام التى كنت تأخذنى معك فيها ونتمشى معا فى الشارع وتشترى لـى الفول السودانى وحب العزيز ونذهب معا لزيارة الاستاذ منصور ٠

وكان الاستاذ منصور يحملنى بين يديه ويقول لى يا أمورة ويحضر لى علبة الشيكولاتة المذهبة لأملأ جيوبى منها ونظل نضحك طوال الزيارة » ٠

واطبق الاستاذ حسين كراس احلام بهدوء هذه المرة وقبل ان يتم قراءة الموضوع ٠٠ كان فى نيته ان يغير هذا الموضوع بالذات من أجل احلام ولكنه خشى ان يؤلمها ذلك أكثر ، خاصة بعدما حدث يوم التعبير الشفوى ، لم يكن يعرف يومها ان احلام فقدت والدها قبيل بدء العام الدراسى وحين طلب اليها ان تتكلم فى هذا الموضوع وقفت كالعادة وهى تغالب الضحك واندفعت قائلة : ابى العزيز اتمنى أن تكون بصحة جيدة وبعد ٠٠ وصمتت لحظة خاطفة تلاقت خلالها عيون التلميذات فوق وجهها فى فضول ٠٠ وفجأة انفجرت باكية ٠٠ ولحظتها فقط عرف من أقرب تلميذة اليه ان أحلام فقدت والدها منذ أسابيع وحاول ان يواسيها طوال الحصة ولكن أحلام نفسها جعلته يكف عن المحاولة ٠ حين نسيت نفسها بعد دقائق وعادت الى طبيعتها المتوثبة تثرثر وتضحك وتغضب لأن بنتا أوقعت حبرا على كراستها أو عبثت بشعرها المدلى على هيئة ذيل الحصان ٠ كل هذا جعل الاستاذ حسين يعدل عن محاولته تغيير الموضوع ٠٠ كان ما يؤلمه ان الفتاة لم تكن تعى موقفها تماما ٠ وكان هذا أيضا مايعزيه ٠٠ وكان عليه بعد كل ذلك ان يستمر فى تصحيح الكراسات فامتدت يده الى الكراس التالى ٠ كانت جلدته حمراء وقرأ فوق الطاقة الصغيرة « نوال » واستراح لهذه المصادفة ٠ لن يتعب فى تصحيح هذا الكراس ٠٠

انه يعرفها جيدا واتضح فى رأسه وجهها الأسمر والملامح الذكية ٠٠ الهادئة ٠٠ يقولون انه لا علاقة بين الذكاء وسمات الوجه ٠ ان وجه نوال يؤكد هذه العلاقة كما ان نوال كلها تؤكد العلاقة بين الذكاء الممتاز والاخلاق الممتازة ٠٠ لو ان تلميذات الدنيا

مثل نوال لكان التدريس بلا ريب اعظم مهنة فى العالم ٠٠ ولم يتناول الاستاذ قلمه الأحمر هذه المرة بل قرأ والقلم لايزال موضوعا أمامه ٠٠ « والدى العزيز ٠٠ احييك تحية طيبة واقبل يديك الكريمتين وبعد ٠ فقد التحقت هذا العام بمدرسة التجارة الاعدادية للبنات وهى مدرسة جميلة ولكنها ضيقة لا تتسع لجميع التلميذات مرة واحدة ولذلك نذهب على فترتين فترة فى الصباح وفترة فى المساء ٠٠ وأنا اذهب فى فترة المساء » وقال الاستاذ حسين فى نفسه وهو يتناول القلم ليضع همزة فوق كلمة (أذهب) هذا هو الكلام المعقول فعلا برافو يانوال واستمر يقرأ : « ونحن نخرج تقريبا فى الساعة السابعة وانتظر مع زميلاتى قطار الساعة الثامنة وغالبا ما تكون الدنيا برد جدا ياأبى فى هذه الساعة التى تطول عن كل الساعات وقد كنت اريد أن أطلب منك شراء بلوزة صوف لتدفئنى فى هذا البرد لولا أن أبله تحية مدرسة الالعاب طلبت منا ان نشترى لبس الالعاب ضرورى يوم السبت ونحضره معنا ومع اننى لا أحب الرياضة ولا أذهب للقسم المخصوص فقد قالت لى ٠٠ لابد ان تحضرى اللبس يوم السبت والا فلا ترينى وجهك فى المدرسة ٠٠ وانا والله يا أبى لا أحب الالعاب ولم أكن أريد هذا اللبس أبدا فهو أغلى من ثمن البلوزة مع انه لا يدفئنى فى الليل !

وانا يا أبى أحب فى المدرسة أبله عفاف لأنها طيبة جدا وتعاملنا كأخواتها ولا تشخط فينا مثل ابله تحية ولذلك لا نزعل منها أبدا واذا ضربت تلميذة فانها تصالحها فى الحال ولذلك لانزعل من ضربها » وأوشك الاستاذ حسين ان تفلت منه هذه العبارة : (وانت يانوال) ! وقفز بعينيه فوق بقية السطور فى سرعة فوقع فى ذيل الموضوع على هذه العبارة التقليدية (نظر) وسحب كراسا آخر ٠٠ كانت طريقته فى التصحيح ، ان يقرأ عينات من الموضوع ويلاحظ عينات من الخطأ وكفى الله المدرسين شر اطالة التصحيح

كان الكراس الآخر عاريا من الغلاف الملون · ملوثا ببقع الحبر · وصاح الاستاذ حسين وهو يقلب الكراس بين يديه : اوه هو انت يافكيهة · ! ؟

وبرز امام عينيه وجه ريفى لا يعبر عن شىء سوى الحذر الدائم مما حوله والخوف من مجهول والانطواء فى داخل الذات بحيث لا تنفرج شفتا الفتاة الا للأجابة عن سؤال يؤكد لها الاستاذ دائما انها المقصودة به قبل ان تتهيأ للأجابة عنه · وشعر مضفر تتعلق بنهايته قطعة من القماش الأبيض تنقصها النظافة ، وتفكها كل يوم التلميذة الخبيثة التى تجلس خلفها لتظل فكيهة تبحث عنها بين القماطر قبل ان تذهب باكية الى المشرفة التى تواجهها دائما بهذا السؤال حتى قبل ان تفتح فاها بكلمة « نعم ياستى ام ضفيرة » ! واصبح « الست أم ضفيرة » لقبا تعرف به فكيهة وتهمس به التلميذات بصوت لا يسمعه غير فكيهه ، وقرأ الاستاذ « حضرة المحترم عمى العزيز الشيخ بسيونى · بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته · أطلب منك ياعمى ان تقرأ هذا الجواب على ابى كلمة كلمة وحرفا حرفا · واعرفك يا والدى بأننى دخلت مدرسة التجارة الاعدادية للبنات والمدرسة كويسة جدا وفيها العلوم النافعة والاخلاق وأنا أحب المدرسة كلها ولكن البنات فى فصلنا غير مؤدبات ولسن مثل البنات فى بلدتنا كفر عوضين انهن يضحكن منى فى حصة المطالعة لأننى لا أنطق بعض الحروف مثل نطقهن ولكنهن لايعرفن ان هذه قلة أدب وحين يشخط فيهن الاستاذ فانهن يضحكن منى فى سرهن وأصبحت أكره حصة المطالعة ولكن أحب حصة الآلة الكاتبة وأنا كويسه فى الكتابة عليها · والابله تقول لى أنت أشطر تلميذة فى الكتابة على الآلة الكاتبة ولكن حصة الآلة مرة واحدة فى الأسبوع والمطالعة مرتين ، والابله تقول لى فى السنة القادمة سوف تكون الآلة حصتين « ملحوظة : » سوف احضر فى الاجازة وخالتى تسلم

عليكم كثيرا وأنا مرتاحة عندها وأنا فى شدة الشوق الى اخواتى جميعا واود أن أراهم بفارغ الصبر لقد اصبحت أحب اخواتى جدا خصوصا بعدما رأيت بنات البندر ولم تعجبنى اخلاقهن وسلامى على كل أقاربنا وكل سكان الشارع صغيرا وكبيرا فطيما ورضيعا والسلام ختام » كان هذا الموضوع قصيرا جدا ولهذا السبب وحده اتم الأستاذ حسين قراءة الموضوع ، وفى نهاية الموضوع كان صبر الاستاذ قد نفد · وكان لابد ان يشعل سيجارة ليصبح فى مقدوره الاستمرار فى هذه المهزلة · كانت كومة الكراسات لاتزال ترتفع أمامه متحدية صبره وهدوءه وكان يدرك بخبرته ان خير الطرق للتخلص من قرف التصحيح هو ان يستمر فيه حتى يفرغ منه · انه كالدواء كلما زادت الجرعة فرغت الزجاجة لا بأس بزيادة القرف مادامت تلك هى الطريقة الوحيدة لتجاوزه !

وامتدت يده الى كراسة أخرى مجلدة بغلاف أزرق وقرأ « عطيات » ترى ايهن تكون ؟ ان فى فصله ثلاثا يحملن هذا الاسم ! تابع قراءة هذا الاسم « عطيات » انها تلك الفتاة النحيفة التى تتأخر دائما لأنها فى الصحة المدرسية ان جسمها يثير الرثاء حقا وامثال هذه الفتاة فى حاجة الى العلاج أكثر من حاجتهن الى العلم ترى ماذا ستكتب هذه اللعينة هى الأخرى ؟ وفتح الكراس ليقرأ ·

« والدى العزيز احييك ياوالدى وأسلم عليك وعلى أمى وجميع أخوتى الصغار · نرجس وبثينة وكاميليا ومحمد ···

لقد التحقت هذا العام بمدرسة جديدة الا وهى مدرسة التجارة الاعدادية للبنات وهى مدرسة حسنة جدا ونحن نتعلم فيها العلوم المفيدة ونأخذ فى اليوم ست حصص وفى الوسط نأخذ فسحة قصيرة ربع ساعة لنتناول الغداء وهو مكون من الجبن الرومى والبيض

والفول وهو طعام حسن جدا ياوالدى وهو من نعم الله علينا فنشكره ونحمده ...

وأنا أحب جميع زميلاتى خصوصا فتحية وهى تلميذة حسنة جدا جدا وأنا وهى مثل الأخوة حاجتىحاجتهاوحاجتهاحاجتىوفىالأسبوع الماضى يا والدى اشترى لها أبوها قلم حبر جديدا ولما وجدتنى أكتب بالريشة اعطتنى قلمها القديم وهو ليس قديما ولما قلت لها لا قالت سوف اخاصمك اذا لم تأخذيه ولذلك اخذته حتى لاتخاصمنى ...

وأطبق الاستاذ حسين الكراس فى عنف وألقى به فوق التل الآخر بعد ان كتب كلمته التقليدية « نظر » .. لافائدة . هذا ماقرره الاستاذ حسين فى النهاية ، لماذا يبيع نفسه للشيطان ؟؟ ليترك كل هذا السخف وليعش لحظة لنفسه . انه منذ مدة طويلة لم يرد على رسالة صديقه العزيز متولى المدرس ببنى سويف فان لهذا الصديق مصالح يلاحظها الاستاذ حسين ، لقد ارسل له منذ اسبوعين يسأله عن قطعة الأرض التى يملكها بجوار طلخا ويطلب اليه ان يذهب بنفسه ليرى هل انتهى الحاج « عطوه » من زراعة القطن وكم تكلف اعداد الأرض للزراعة وبكم اشترى البذور والكيماوى فهو لم يعد يثق كثيرا بالحاج عطوه منذ اصبح يعمل بعيدا عن ارضه . لقد تعود ان يشرف على مصالح صديقه هنا والمسألة لاتكلفه أكثر من مشوار فسحة . وقام بالمشوار فعلا وبقى ان يكتب لصديقه بنتائج ملاحظاته ..

ولمعت عيناه ببريق عاطفى وهو يخرج ورقة ليكتب لصديقه ، لقد استعاد فى خياله صورا لحياته مع متولى فى المنصورة ايام ان كانا تلميذين فى المرحلة الثانوية . وتنهد الاستاذ حسين وهو يتمتم « يالها من ايام » ! واستعاد فى خياله مرة أخرى صورة الحاج عطوه بملابسه السوداء وأسنانه المتفرقة وكلماته كلمة .. كلمة ..

ليكتبها للأستاذ متولى وامسك قلمه وكتب « عزيزى متولى تحيـة وحبا وبعد ذهبت حسب طلبك الى الحاج عطوه لاعرف لك ماتريد ان تعرفه عن شؤون زراعتك · وفى طريقى الى طلخا عبرت الكوبرى الجديد ومررت بكازينو « منيرفا » الذى شهد اجمل سهرات شبابنا · الا تزال تذكر هذه السهرات ؟ وهذه الايام التى كنا ننطلق فيها على هوانا نلهو ونمرح وكأن الحياة ليست الا أغنية نرددها وحـــدنا ونسمعها وحدنا ؟ لا أحب أن أخوض فى تفصيلات هذه الحياة · فقد يقع هذا الخطاب مصادفة فى يد أحد تلاميذك فيعرف شيئا عن ماضى استاذه العريق ···

اننى أكتب اليك هذه الرسالة بعد ليلة ساهرة أتدرى فى أى شىء ؟ فى تصحيح كراسات البنات ! تصور ايها الأخ ! أصـبحنا نقضى ليلنا فى تتبع هذه الخطوط السوداء المتشابكة والتى تزعـــم التلميذات انها انشاء من فيض العقول · هل اطمع فى ان تحدثنى عن حياتك لا أعتقد انها تفضل حياتى فى شىء ســوى المـــزيد من المتاعب ؟ كيف تقضى لياليك فى بنى سويف وكيف ؟

ولكن معذرة فقد كدت انسى ان أحدثك عن الحاج عطوه · لقد قابلته وعرفت منه ان ···

أدب المقاومة

الآخـــرون

حين سافر « محمود » الى الاسماعيلية فى شتاء عام ١٩٥١ كمندوب لجريدة (٠٠٠٠) الصباحية ، لم يكن يزعم امام نفسه على الأقل أنه ذهب ليكافح بقلمه فى المعركة الباسلة التى يخوضها الفدائيون فى « القنال » ضد اعداء الوطن ٠ فقد كان متفاهما مع نفسه على الدافع الحقيقى الذى من أجله سافر الى الاسماعيلية ، ومتفاهما معها أيضا على اخفاء هذا الدافع عن الناس وخاصة عن زملائه الصحفيين ٠ بل واكثر من ذلك كان متفاهما معها على ان يتشدق مع الناس ، بكلمات الكفاح والبطولة والنصر وغيرها من الكلمات التى كانت وقتذاك بمثابة الخبز اليومى لمشاعر الناس الجائعة الى الحرية ، اما حين يلقى نفسه وجها لوجه بعيدين عن الناس ، فقد كان يتحدث اليها فى صراحة ٠ لقد جاء الى الاسماعيلية ليلقى هؤلاء الفدائيين ٠ ليتحدث اليهم ، ليعرف لماذا اتوا الى هنا ؟ لماذا جاءوا ليقامروا بحياتهم ؟ طبعا لن يتحدث معهم هكذا فى

صراحة ! · وانما هو يعرف كيف يحملهم على أن يتحدثوا ، على ان يقولوا كل شيء !

ما هو هذا الوطن الذى يبذلون من أجله حياتهم : ما مدى احساسهم به وما مدى احساسهم بحياتهم تلك التى يبذلونها ؟ ·· انه يفهم ان يكافح الانسان من أجل سعادته · ان يناضل ، ان يتألم، ان يشقى من أجل حياة سعيدة · أما ان يفقد الانسان حياته نفسها ، فهذا ما لا يمكن تصوره بحال ·· ! هل هناك شيء أغلى من الحياة ذاتها ، حتى يمكن ان نبذلها من أجله ؟ يقولون الحرية ! ولكن ، ماهى الحرية ؟ انها احدى حاجات الحياة ، وحين نفقد الحياة ، نفقد معها حاجتنا الى الحرية ! يقولون الحرية من أجل الاخرين ، ولكن من هم الاخرون هؤلاء ؟ انه لا يكاد يحس بهم · وهم أيضا هل تراهم يحسون ؟ هل يحسون به الا حين يحتاجون اليه ؟ وهل يحس بهم الا حين يحتاج اليهم ؟ وحين يموت الانسان ماذا سيبقى منه ليحتاجه الآخرون ؟

وكان يحلو له احيانا ان يتصور الآخرين · ان يقف ليتأملهم وهم يمضون فى طريق الحياة ، وراء احلامهم وامانيهم لا يكاد كل واحد منهم يشعر بمن حوله من الناس ·· الفتاة الجميلة التى تقطع الطريق مسرعة الى لقاء حبيبها ·· الأب العائد الى البيت وفى يده حقيبة من الورق ملأها باحلام أولاده الصغار · العجوز الذى يبيع الفول فى الصباح ويأخذ ثمنه بالصلاة على النبى ·· الصبى الذى يبيع الجرائد فى ميدان العتبة دون ان يعرف شيئا مما بها ·· الخواجه الذى يبيع العمال اردأ أنواع الخمور فى بار السعادة ويأخذ منهم الهموم والقروش ·· الـ ·· الـ ·· »

ان هؤلاء جميعا لا يحسون به وهو حى · فهل يحسون به بعد

ان يموت ! أى شىء يدفعه لأن يفقد حياته من أجلهم ! انه لا يملك الا حياته هو · وحين يفقدها سيفقد معها كل شىء ·· كل شىء ··

كانت هذه الخواطر تتلاقى خلسة فى رأس محمود ، كانما تخشى ان يراها أحد · أحد من داخل نفسه لا من خارجها · كان يخجل ان تكون تلك خواطره ، وانه يحمل فى رأسه افكارا لايجرؤ ان يواجه بها الناس · وكم حاول ان يقتل هذه الخواطر فى نفسه ، تارة بالمناقشة وأخرى بالتجاهل ، ولكنه فى كل مرة كان يخرج منهزما من المعركة · وحين سافر الى الاسماعيلية كان يعتقد انه سوف يضع حدا لهذه المعارك التى لا تنتهى ، سيلقى هؤلاء الفدائيين، سيتحدث معهم طويلا ، سيعرف منهم كل شىء ـ كان يحس احساسا غامضا يملأ جوانب نفسه بأنه لابد أن يكون هناك شىء وراء تلك الاعمال الفائقة التى يقومون بها ، شىء يفوق احساسهم بالحياة ذاتها !

وكان ايمانه بوجود هذا الشىء هو الذى منع اليأس من ان يتسرب الى قلبه حين أمضى قرابة شهر بالاسماعيلية دون ان يصل الى ما يريد · كان بطبيعة عمله كمراسل حربى يتصل بالفدائيين لينقل الى جريدته انباء كفاحهم · وكان فى خلال ذلك يحاول ان يكسب ثقتهم ، ليتحدثوا اليه عن حقيقة مشاعرهم وهم يعانون تلك التجارب الهائلة ، التى يصورها ـ من الخارج ـ الى قرائه وكانوا يتحدثون بيد انه كان يشعر شعورا قويا بأنهم لايقولون كل شىء · انهم يرددون نفس الكلمات التى يرددها الناس ، عن الوطن والحرية والكفاح · تلك الكلمات التى فقدت مدلولها بالنسبة له ، ترى هل يختلف احساسهم بها عن احساسه ؟ لا يدرى ولكنه مع ذلك يحس ان هناك اشياء خفية داخل نفوسهم لا يستطيعون التعبير عنها ، ولكنهم يحسونها بلا ريب · أشياء تجعلهم يعشقون أرض المعركة كما يعشق المقامر طاولة اللعب · اشياء يغرق فيها احساسهم بالحياة

ذاتها · ولكنهم ابدا لا يعرفون كيف ينقلونها اليه · واصبح يضيق بهم ، بل لعله أصبح يضيق بنفسه ! من هو ؟ ومن هم ؟ كأنهم غرباء !! كان يتساءل فى مرارة قاسية : ترى هل يختلف احساسه بالحياة عن احساسهم بها ؟ اننا لا نمنح الحياة الا مرة واحدة ومن هنا كانت الحياة قيمة فى ذاتها ، فكيف نقامر بها هكذا كأننا نملك منها الكثير ! ويشعر محمود بأنه يريد ان يحطـــم رؤوس الفدائيين ليرى مـــاذا بداخلها ؟ هل هم حمقى ، أم انهم فقدوا صفاتهم الانسانية ، ام ماذا هم ؟ واحيانا كان محمود يتمادى فى تساؤله ·· أليس من الجائز ان تكون الحرية بالنسبة لهم هى لب الحياة وقيمتها وان تكون الحياة بدون حرية امرا لا قيمة له ؟ ويمط محمود شفته السفلى حين يرد على تساؤله ·· اليسوا أيضا يفقدون حريتهم حين يفقدون حياتهم ؟ أليس الموت عبودية مطلقة ؟

***

وفى أصيل يوم من أيام ديسمبر ، والشمس تأخذ طريقها الى الغروب كان محمود يسير جذبا الى جنب مع « حسن » الذى تعرف اليه منذ أيام · كان حسن يحكى للمرة الثالثة قصة هربه من أهله ليتطوع مع الفدائيين ، وكيف ان أباه كان يعارض فى مجيئه ، وان أمه كانت تبكى حين علمت بنيته فى التطوع ، وكيف ان المعلم وهبه صاحب الورشة التى كان يعمل بهـــا قال له حين علم برغبته فى التطوع :

ـ يابنى · ربنا يهديك · خليك معـــانا · وأنا ازودلك خمس قروش فى اليوم · وكيف انه فعل ذلك بايعاز من ابيه بعد ان قال له : سأعطيك أنا هذه الزيادة · ان اباه لا يريده ان يتطوع لأنه أكبـــر أبنائه ، ولأنه يخاف عليه ، ولكن ألا يعلم أبوه ان الاعمار بيد الله ، وانه من الجائز ان يموت وهو فى البيت ، وماذا لو مات هنا ؟ سيموت

شهيدا ، وسيذهب الى الجنة بغير حساب وهناك فى الجنة سينال كل شيء ٠٠ كل شيء ٠٠ فضلا عن انه سيستريح من وجه المعلم « وهبة » الذى يجمع نكد الدنيا فى ملامحه القاسية ، ان كل ما فى الدنيا لايساوى شيئا بجانب الجنة٠هذا ماكان الواعظ يقوله كلما زار مسجد القرية ، وهذا ماجعل حسن يحرص على ان يتطوع لتكون له الجنة بغير حساب ٠ وكان محمود يسمع أيضا للمرة الثانية أو الثالثة نفس القصة فى شغف زائد ، كانت تستهويه تلك البساطة العجيبة التى يتحدث بها حسن ، وتلك الصراحة التى لا تقف عند حد ٠ كان حسن شابا ودودا يختلف عن سائر من عرفهم محمود من الفدائيين ٠ كان يتحدث معك فى بساطة عن كل مايتصل به ، كما لو كنتما صديقين قديمين ، ولعل هذا هو ماربط بين محمود وبينه منذ أول لقاء ٠ كان محمود يحس أنه ليس فى حاجة الى ان يكسر رأس حسن ، لأن افكاره توجد خارج رأسه لا داخله ٠ ولم يكن يحاول ان يسوقه الى حديث معين ، لأن حسن كان لايحب ان يتحدث عنه ٠ وكان طابع الصراحة التى تتميز بها احاديثه ، هو ما جعل محمود يستمع الى ثرثرته التى لاتنتهى ، دون تبرم أو قلق ، على ان الجنة كانت هى حلم حسن الاكبر ، الذى لاتكف أحلامه عن التحليق حوله فى كل حديث !!

وقال محمود وهو يتطلع أمامه :

ـ اوه ٠٠ لقد سرقنا الحديث ، وبدأنا نقترب من طريق المعاهدة ٠ الا تحب ان نرجع ، أم تعتقد أنه من الممكن لو واصلنا السير ان نصل الى الجنة ! ٠

فضحك حسن ، واهتز جسمه القصير الممتلىء ، وتألقت عيناه الضيقتان وقال وهو يضرب بيده على مؤخرة البندقية التى لم تكن تفارقه ٠٠

ـ لا تخف ٠٠ انت معك بطل ٠

وقفلا راجعين ٠ كانت نسمات الشتاء الباردة تلفح وجهيهما ، والأرض الرملية تتلاقى فوقها ظلال النخيل الطويلة ٠ وكأنما تحاول ان تغطيها من ليل ديسمبر القارس الطويل ٠ ومحمود وحسن يسيران جنبا الى جنب ٠ كانا صامتين ٠ وكانت ملامـــح محمود الدقيقـة المرهفة ، تنم عن ذلك الذى يحاول جاهدا ان يخفيه ، على حين كانت ملامح حسن تفضح رغبته فى الثرثرة ، تلك الرغبة التى لم تجد من ملامح محمود المضطربة وخطواته المســـرعة ما يشجعها على ان تتحقق ٠

وحين بدأ يقتربان من الدروب الملتوية وسط الهضاب ، كانت عربة (جيب) انجليزية تقبل جهتهما مسرعة فى جولة استكشافية ٠ ولم تكد تقترب منهما حتى اطلقت عليهما النار دون ان يشعرا بها ٠ فانبطحا أرضا ، وفى غير روية راح حسن يطلق النار هو الآخر على مؤخرة العربة فى دورانها لتحتمى بالهضبة الشـرقية ، فأصـــيبت عجلتها الخلفية ، وتوقفت عن المسير وسط أرض مكشوفة ٠ وهنا وجد حسن نفسه مرغما ان يخوض معركة غير متكافئة ٠ لقد هبط الجنود الانجليز فى سرعة خاطفة ، منبطحين على وجوههم وتحصنوا بالعربة ، وراحوا يطلقون النار ٠٠ كان حســـن يرد على الطلقات المجنونة ببطء وحذر ٠ كان يخشى ان تضيع طلقاته فى الهواء ٠٠ اما محمود الذى كان يرقد على مقربة منه ، فانه فى هذه اللحظات لم يكن يشعر بشىء مطلقا ٠ كان قد فقد قدرته على الاحساس بأى شىء ، حتى بالخوف ٠ كان كقطعة الأرض الجامدة التى يرقد فوقها، حتى نظراته ، لقد جمدت هى الأخرى فوق مكان من الارض لاتحول عنه ٠٠ وشيئا فشيئا بدأ محمود يسترد مشاعره بدأ يحس بالخوف يزلزل كيانه ، وراحت نظراته الزائغة تتلمس طريقها الى حسن ، حتى عثرت عليه ٠ وفى هذه اللحظة كانت مشاعر محمود تعانى انقلابا

هائلا ، لقد بدأ يحس كأن حسن ليس شخصا آخر منفصلا عنه ، وانما يحس كأنه قطعة منه ! أجل فأن اية رصاصه تصيب حسن سوف تقضى عليه ايضا · كان احساسه بحسن يزداد كل لحظة عمقا وصلة ، وكأنما يستحيلان شخصا واحدا · انه الآن يشعر بنوع من الهدوء يتسرب الى قلبه · ووجد نفسه يزحف الى جوار حسن وهو لا يدرى كيف فعل ذلك ، وعندما اقترب ادرك ان حسن مصاب ، وانه يبذل جهدا كبيرا ليتماسك · ووجد نفسه يأخذ منه البندقية ، ويغير مكانه قليلا ويعاود اطلاق الرصاص ولا يدرى كيف حدث ذلك ايضا ، لقد أحس كأن حمى هائلة تجتاح كيانه ، وتكتسح امامها كل خوف أو تردد ، كان يحس ان الرصاصات التى يطلقها تبطىء فى طريقها الى العربة · و ··· فجأة ، توقفت البندقية التى كانت تحاول عبثا ان توقف سير الرصاص المجنون ، كانت الرصاصات قد نفدت منه · وتلفت حواليه فى ذعر · فأدرك انه أصيب · كان هناك خيط من الدم يتلوى امام عينيه ، فتمتصه الأرض الرملية النهمة · لم يكن يدرى من أى مكان فى جسده ينبعث هذا الخيط · وامتدت يده تتحسس جسده ، كأنما لتوقف الخيط اللعين ولكنه كان لا يزال يتلوى ويمتد ·· انه سيفنى الآن ·· سيموت ·· سيموت · ولم يعد يبصر العربة · ولم يعد يسمع الطلقات · وتحولت نظراته الى حسن ، كانت عيناه مواربتين وأيضا ، شفتاه · كان لأول مرة لا يثرثر ولا يتحدث عن نفسه · واحس محمود برغبة فى ان يبكى ، انه هو الآخر سيموت · ولكنه لم يمت بعد · انه لايزال حيا · انه لايزال يعيش · ان حسن هو الذى منحه هذا القدر من الحياة · هذه اللحظات التى يعيشها الآن · ان حسن هو الذى تقدم واعطاها له ·

وبدأ يدرك شيئا ، انه هو الآخر يمنح الحياة اناسا آخرين · ولأول مرة بدأ يحس بهؤلاء الآخرين ، يحس بهم كأنهم أيضا قطعة منه · ولأول مرة بدأ يدرك الصلة العميقة التى تربطه بهم · انه

يمنحهم الحياة التى يفقدها هو · الفتاة التى تقطع الطريق مسرعة الى لقاء حبيبها ··· الأب الذى يعود الى بيته وفى يده أحلام أولاده الصغار ·· عم محمد بائع الفول ·· العوضى بائع الجرائد ، حتى العمال السكارى · كل هؤلاء : انه يتيح لحياتهم ان تستمر ، ان تبقى ، ان تمتد · انه الآن يحس ان شعورهم بالحياة يندلح فى قلبه ··· فرحهم ··· املهم ··· ترقبهم ··· أجل ، فحياتهم لم تعد غريبة عنهم · وفى لحظة متألقة ادرك ان حياة الناس جميعا تلتقى فى صعيد واحد · ولكنه لم يقف قبل هذه اللحظة فى هذا الصعيد وذاب فى اعماقه شعور مرير بالأسف · انه يفقد الحياة بعد ان عرفها لأول مرة · وادرك فى قسوة انه لم يعش قبل هذه اللحظات · لا بل كان يعيش داخل قوقعة مظلمة ، داخل ذاته ، وحين انطلقت بعض الرصاصات وحطمت تلك القوقعة ، بدأ يحس بالآخرين · بحياته تعانق حياتهم ، وتفنى فيها وتذوب ·· ومرة أخرى بدأ يبصر الخيط اللعين ، انه لم يعد خيطا واحدا · وتشبثت يده بالخيوط الحمراء المتشابكة كأنما ليمنعها من ان تتسرب · وبدأت ترتعش ، وتضعف عن ان تظل ممسكة بالخيوط الحمراء · وأدرك فى غيبوبة مرتعشة : ان هناك احذية ثقيلة تقترب ، وأصواتا تلغط · ثم اخذت هذه الأشياء تنبهم فى وعيه · وكان برغم ذلك يتبين خلالها بصورة غائمة ·· نجوى حلوة ·· ومناغاة اطفال ·· وصوتا يبيع الفول ·· والجرائد ·· وعربدة سكارى ·· و ·· ولا شىء ·

الموت

حـــارس المقبـــرة

كان الظلام كثيفا جدا ٠ وحين اشعل عودا من الثقاب وأدنى منه سيجارته المبرومة اختفى للحظات هذا الظلام الكثيف من حوله وبدت للحظات أيضا شواهد القبور المحيطة به ملقية بظلالها المرتجفة الى الوراء ٠ ومرة أخرى ساد الظلام جوانب المكان ٠ ولم يبق هنئاك سوى قرص صغير أحمر يشتد توهجه كلما جذب نفسا عميقـــا من سيجارته ٠

وفى اللحظات التى كان يشتد فيها توهج القرص الأحمر كانت تبدو خلال الظلام شفتان يابستان سوداوان تنطبقان على أطـراف السيجارة ، يطل فوقها شارب مهمل ، وخدان تملأهما تجاعيد صلبة، وعينان تطل منهما نظرات مثقلة بالتفكير ٠ اما باقى الرأس فلم يكن يظهر سوى شوارب (اللاسه) التى تلتف حوله الى حيث تلامس انفـــه الطويل واذنيه اللتين يختفى نصفها تماما تحت اللاسة ٠

كانت الليلة من ليالى ديسمبر الباردة والرياح تهز الاشجار القليلة المتفرقة فى انحاء المقابر فتحدث صوتا تنقبض له النفس فى هذا المكان دون غيره ... غير ان عبد العال كان قد بدأ يألف المكان كله . وزايله ذلك الخوف الداخلى الذى صاحبه منذ بدأ سهرته لحراسة المقبرة الجديدة التى دفن فيها الليلة الشيخ عوض ونزل ضيفا على الآخرة .

لقد جلس عبد العال يفكر بأنه هو الآخر سيقضى ليلته ضيفا عند سكان مقابر القرية . عند أهل بلده الأصليين . مع الناس الكبار أصل البلد الذين زرعوا فى حواريها وشوارعها آلاف الأولاد وتركوهم ينبتون مثل الأرز ... ومد عبد العال بصره ليشاهد على مقربة منه مقبرة الحاج أحمد ببنايتها العالية وبجوارها مقبرة الحاج علوان ... الناس الكبار يظلون كبارا فى مماتهم ولا يفرقهم الموت ... كان هو طفلا يوم ان كان هؤلاء الرجال لهم فى البلد شأن ... وراح عبد العال يجهد فى ان يتذكر ملامح الحاج احمد ... ولكنه لم يكن يبذل ادنى جهد فى تذكر المناسبات التى كان يرتفع فيها صوته فى القرية حين تحدث فى القرية مصيبة أو حادثة جاموسة تموت ... أو دار تحترق ... أو زراعة تهلك . وكان الحاج يطوف بالقرية وبصحبته الحاج علوان يدخلون البيت ويخرجون محملين بما يستطيع كل بيت ان يدفع .

وهكذا لم تكن المصائب فى تلك الايام تستطيع ان تنفرد بواحد فى القرية .

كانت القرية كلها تقف فى وجه الدهر عندما يريد ان يميل على أحد أما فى هذه الايام فلم يدر عبد العال ماذا جرى فى الدنيا . لقد مات هؤلاء الرجال الكبار رجلا وراء الآخر . وترك كل واحد منهم عددا كبيرا من الأولاد وتزوج أولادهم واخلفوا أولادا . وانقسمت

الدور الكبيرة الى حجرات سرعان ما ضاقت بسكانها فزحفت دور القرية وتجاوزت الترعة الغربية وتخطت الطريق الزراعى واقتربت من ناحية بحرى جهة المقابر ...

كانت المسافة بعيدة بين القرية والمقابر اما الآن فهى يبصر من مكانه المصابيح الصغيرة تحدق اضواؤها فى نوافذ البيوت التى توجد ناحية المقابر ...

زادت البيوت وزاد الناس ولم يعد فى البلد ناس كبار مثل زمان فالأراضى التى كان يملكها امثال الحاج أحمد قسمت بين أولاده وأصبح نصيب كل واحد لا يكاد يكفيه . واصبح كل واحد مشغولا بنفسه وبأولاده .

يموت رجل فى القرية أو تحدث مصيبة لأحد فيشغل الناس بالحديث عنها ساعات ثم تشغل كل واحد مشاغله . لم يعد هناك مآتم تبقى ليالى يخرج فيها كل بيت طعاما للمعزين من البلاد الأخرى ويأكل فيها الناس .

ويمر المولد النبوى ومولد سيدى حازم فلا تقام خيمة ولا تذبح حتى دجاجة ...

المسألة كلها أنه لم يعد هناك رجال مثل الحاج أحمد ترتفع أصواتهم فى القرية بين الحين والحين . أصبح الدهر ينفرد بكل رجل فى القرية فلا يحس به أحد ...

« الله يرحم الناس بتوع زمان » خاطب عبد العال نفسه بهذه العبارة بصوت مسموع وهو يدفن عقب سيجارته فى الأرض وعيناه تطوفان بشواهد القبر التى تظهر خلال الظلام كأشباح ساكنة ، وخلال هذه الشواهد كان يخيل اليه ان وجه الحاج أحمد بلحيته المستديرة وبشرته البيضاء مثل اللبن وعينيه الصافيتين كان يخيل اليه ان هذا

الوجه يطل بين الشواهد ليرتفع صوته بهذه الكلمات : « يابلد لازم نعمل كذا وكذا » كان دائما يقول كلمة « يا بلد » كانت البلدة فى تلك الأيام شخصا واحدا يخاطبه الحاج أحمد فيسمع ويطيع · اما الآن فمن يسمع ؟

لو كان الرجال امثال الحاج أحمد لا يزالون يعيشون لما مرت به وبالقرية هذه الايام السود فالبركة ماتت منذ مات هؤلاء الناس لم تعد هناك بركة فى شيء · لا فى زرع ولا فى الفلـــوس ولا فى حاجة ابدا · كل الناس يشكون أو على الأقل يتظاهرون بالشكوى · فصاحب الأرض لايكف عن الشكوى من المصاريف على الأولاد فى التعليم وفى غيره · والمزارع لا يكف عن الشكوى من المصاريف على الأرض ··· والأجير مثل عبد العال ·· أصبح من الضرورى ان يقوم بعمل آخر فالعمل الموسمى فى الحقـــول لا يكاد يكفيه لأنـــه لا يستمر طول العام ··· ولهذا اضاف عبد العال الى عمله كفلاح يعمل بيديه أعمالا عديدة تعتمد على المصادفة فهو أحيانا يملأ حوض المياه الذى تشرب منه البهائم فى مدخل القرية واحيانا ينادى فى القرية بحثا عن اوزة ضائعة وآخر المطاف انتهى به الأمر ان يحرس المقابر من اللصوص ··· وفى الحقيقه ان هذه المهمة جديدة على القرية ··· فقبل ان تظهر حكاية سرقة الاكفان لم يكنِ لهذه المهمة وجود ·

وسرقة الاكفان هذه هى احدى عجائب هذه الايام وفى ليلة وفاة الشيخ عوض تقدم ابنه رشـوان من عبد العـــال وهمس فى اذنيه ···

ـ يا عبد العال ··· انت راجل طيب وتستاهل المساعدة ··· أنا عاوزك تبات عند تربة أبويه اليومين دوله ··

فى البداية تردد عبد العال فالمهمة غريبة نوعا مـا ··· وان

يقضى انسان عدة ليال بين المقابر أمر يوجب التردد ... ولكن تردده لم يدم . فقد كانت حاجته الى الفلوس اى فلوس ، اقوى من ان تسمح له بالتردد طويلا ... كان فى انتظار عمل من اى نوع كان فلم يتردد .

كان الشتاء قد حل ويريد بأى شكل ان يدبر أمر الكسوة لأولاده ولنفسه ... والفلوس التى تأتى اليه تتسرب من بين يديه كالماء . ولا شك ان أجر المبيت عند المقبرة قد يكون مرتفعا قليلا فهو عمل جديد ليس له أجر محدود وسوف يكون العشاء وتكاليف السهرة على أهل الميت بطبيعة الحال ... (قال عبد العال لرشوان على عينى وراسى ياسى رشوان .)

ولم يكد يقبل المساء حتى قدم الى المقابر واتخذ مكانه امام مقبرة الشيخ عوض .

كان هو الآخر رجلا طيبا من ناس زمان ... وجلس فى انتظار قدوم ابنته فتحية وامينة ومعهما كومة من القش من دار الميت لينام فيها وبالطبع سوف يحضران العشاء والشاى وسوف يتعشى ثلاثتهم قبل ان تعود البنتان الى القرية .

كان يشعر فى البداية انه سيقضى ليلته مع اهل بلده الحقيقيين مع الناس الكبار وكان ذلك يؤنسه نوعا ما ... ويمنحه موضوعا يفكر فيه ... كان يشعر بهؤلاء الناس حوله يتذكر وجوههم وكلماتهم ... ولكنه لم يلبث ان احس بصمت بارد يرين على المكان . واختفت جميع الاصوات والوجوه ، ابتلعتها أصوات الرياح والظلام الكثيف الذى بدأ يتجمع بتجمع السحب فى السماء وأحس أنه وحيد فأشعل سيجارته وتلفت حواليه فى انتظار قدوم ابنتيه .

كانت رياح ديسمبر تهز الاشجار بعنف ٠ وعبد العال يتداخل فى نفسه ويزداد التصاقا بالمقبرة ٠ وعيناه ترقبان الطريق الضيق القادم من القرية فى انتظار قدوم ابنتيه ومعهما القش والعشاء ٠٠٠ كان يخشى أن تمطر السماء فتعوق قدوم البنتين وكانت ملامح الطريق توشك أن تختفى أمام عينيه بعد ان تعبأت السماء بالغيوم ٠ وكانت المصابيح القليلة التى كانت تلمع فى نوافذ البيوت القريبة قد اخذت تنطفىء هى الأخرى واحدا وراء الآخر ٠٠ وشعر عبد العال مرة أخرى بالخوف يتسلل الى نفسه ٠

لو ان ابنتيه هنا لما شعر بالخوف ومع ان كبراهما لايزيد عمرها عن عشرة أعوام فقد تمنى لو لم تتأخرا أكثر من ذلك وفكر فى تلك اللحظة ان يستبقيهما معه طوال الليل يتحدثون معا ٠ وحتى اذا اخذهما النعاس فلا بأس فوجودهما نائمتين أفضل من وجوده وحده ٠ ومن الممكن ان تستيقظ واحدة منهما فجأة وتظل تتحدث معه طوال الليل ٠٠

وتنبه عبد العال الى قطرات من المطر تلسع جبينه وكتفيه فى لحظة واحدة ٠٠٠ لقد حدث ما يخشاه ٠

وندت عنه تلك العبارة « يا ساتر » سوف يتبلل القش وسوف تتبلل البنتان اذا كانتا فى الطريق ٠٠٠ ومع انه لم يكن يعاملهما برقة دائما ، فقد شعر فى تلك اللحظة بالذات بنوع من العطف لم يتبين مبعثه ٠

كانت القطرات تتتابع ثقيلة ويسمع وقعها على المقابر الحجرية فتحدث صوتا رتيبا ٠ والعجيب انه انس الى هذا الصوت المتتابع ٠ لقد ازال وحشة الصمت المطبق ٠

وفكر ان ينتقل الى جوار مقبرة الحاج أحمد المقابلة فبنايتها

المصنوعة على شكل حجرة دائرية سوف تحميه من المطر ... كان الحاج أحمد كريما فى حياته وايضا فى موته .

ولم يكد يترك مكانه حتى تناهى اليه صوت يألفه تماما ... ـ آبه .. ابا عبد العال ... كان الظلام كثيفا الى الحد الذى جعل عبد العال لا يكتشف قدوم ابنتيه الا بعد سماع صوت امينه وتقدم نحوهما مهتديا بالصوت واقتادهمـــا كل واحدة من يـد الى جوار المقبرة ... وانزل كومة القش من فوق رأس امينة ... اما فتحية الصغرى فكانت تحمل فى يدها صرة العشاء ... فحملهـــا مع الصرة واجلسها فوق الكومة ... الشتا لحقكم فين يا أولاد ؟

سأل عبد العال ابنتيه بنبرة فيها حنان لم تألفاه ... فأجابت امينة :

ـ الشتا لحقنا هنا قريب خالص ... لكـن بل القش ومش حنعرف نولعه . فأجاب الأب :

ـ معلهش ... دلوقت الشتا يبطل والهواء ينشف القش ...

وجلس عبد العال وضم ابنتيه الى جواره وكانت اصابعه تلمس جسد ابنتيه فى أكثر من موضع ممزع من ثوبيهما ... وبلا شعور كان يديم وضع يديه فوق اماكن التمزق محاول عبثـا ان يســـدها بأصابعه ... كان الجو باردا تماما ... ولم تنبس فتحية (الـ نت الصغيرة) بكلمة واحدة وكانت ترتجف تحت يد والدها كدجاجـــة صغيرة مذعورة ...

وعادت مشكلة الكسوة ... تبرز فى ذهن عبد العال بصورة مزعجة ... المشكلة كلها ان الكسوة تحتاج على الأقل الى جنيهين تحتاجهما معا ... والجنيهات لا تدخل جيب عبد العـال الا على شكل قروش وبرايز ... لم يعمل فى حياته عملا يســـتحق جنيها

كاملا ٠٠ ولن يكون بمقدوره ان يجعل القروش والبرايز تتحول الى جنيهات ٠٠ الا اذا قدر ان يبقى هو واولاده عدة أيام بدون طعام ٠ واستند عبد العال بظهره الى باب المقبرة العالية ٠٠ كان الباب محكم الاغلاق تماما وفكر لو امكنه فتح باب هذه المقبرة لقضى الليلة هو وأولاده بشكل أفضل وعالج الباب قليلا ولكنه كان محكم الاغلاق ٠٠٠ لا فائدة ! وفى هذه اللحظة تصور عبد العال ان جميع الموتى فى هذه المقبرة لايهمهم ان تظل السماء تمطر طوال الليل ٠٠٠ ولا يدرى ما الذى جعله يتصور الشيخ عوض بالذات ممددا فى مقبرته ملتفا فى اكفانه المصنوعة من القطن والحرير والشاهى وان هذه الاكفان لاتزال جافة تماما منذ بدأت السماء تمطر ٠٠٠ وستبقى كذلك فالبلل لن يصل اليها ابدا مهما ظلت السماء تمطر ٠٠٠

ـ آبه ياالله نولع ٠٠٠ انا سقعانه »

ارتفع صوت فتحية بهذه الكلمات ٠ وفكر عبد العال بسرعة انه من الممكن ان يكون القش داخل الكومة جافا نوعا ما ٠٠٠ فأخرج حزمة من داخل الكومة واشعل فيها عودا من الثقاب بجوار المقبرة تماما حتى لا تصل اليها قطرات المطر ٠٠٠ كان المطر قد خف قليلا وبقى بعض الرذاذ يحمله الهواء هنا أو هناك ٠٠٠ ثم لم يلبث المطر ان انقطع ٠٠٠

واضاء المكان بلهب مرتفع يتخلله دخان نتيجة لتبلل القش ٠٠٠ وفى ضوء هذا اللهب ظهرت وجوه ثلاثة ٠٠٠ وجه امينة النحيل تعبر ملامحه عن مزيج من الخوف والبهجة ٠٠٠ كانت خائفة لأنها فى المقابر التى تسمع عنها الكثير من الحكايات الغريبة ٠٠٠ وكانت مبتهجة لأنها تقضى ليلة غير عادية فهى مع ابيها خارج البيت وسوف يتعشيان معا طعاما لم تعرفه بعد من منزل الشيخ عوض ٠ اما فتحية الصغرى فكان وجهها أكثر ملاحة ونضرة رغم الشحوب

الذى يغشاه ... وعيناها تطل منهما نظـــرات متسائلة ســـرعان ما أفصحت عنها بعد ان انست الى ضوء النار الذى ازال وحشتها ومس جسدها المرتجف بلمســـات من الـــدفء أعادت الدماء الى عروقه .

ـ آبه ... أحنا لما نموت حيجيبونا هنا ... ؟

فوجىء عبد العال بســـؤال ابنته . كان فى ذلك الوقت يفك صرة العشاء ليأكل هو .. وابنتاه .

وكان ايضا يريد ان يدفىء العشاء قليلا بتقريب الاناء النحاس المملوء بالحساء من اللهب المشتعل ووجد نفســـه يجيب ابنته دون تفكير .

ـ يابنتى ربنا يخليكى ... انت لسه صغيره ...

كان وجهه وهو يجيب ابنته يبدو وهو الآخر فى ضوء اللهب أكثر طيبة وبساطة مما كان يبدو خلال الظلام .

وعادت فتحية تسأل :

هو يابه اللى بيموت يروح الجنة ...

ـ أيـــوه ...

ـ ويأكل خوخ ورمان وعسل ابيض .. ويلبس حرير ... ؟

ـ أيوه . كان عبد العال يجيب وهو منهمك فى مـد النـــار بمزيد من القش الجاف حتى لا تنطفىء .

ـ واحنا حناكل كده لما نموت ؟

وعاد عبد العال يجيب بضيق هذه المرة ...

ـ ايوه بس يابنتى انت فين والموت فين ؟ اسكتى ...

وقبل ان يكمل أبوها أجابته كانت تسأل ...

ـ امال بيعيطوا على اللى بيموت ليه ؟

وهنا ولأول مرة تدخلت امينة لتجيب اختها قائلـــة وهـــى تضحك ...

ـ انت عبيطة يابت .. امال ايه ... مش لازم الناس تعيط على الميت .

واجاب عبد العال وهو يرمق ابنتيه بنظرة غريبة وفى صوته نبرة تأثر ..

ـ يا بنتى بيعيطوا على الميت لأنهـــم ماعدوش حيشـــفوه تانى ...

وعادت فتحية تسأل ... وعيناها تحملقان فى اللهب وتحاولان ان تقتربا منه .

ـ الميتين دلوقت سقعانين يابه زينا كده ؟

ـ لا يا بنتى ... دول ما بيحسوش بالســـقعة ولا بحاجـة خالص .

ـ امال ليه بيلفوا الميت فى هـــدوم كتير مش علشـــــان ما يسقعش . ؟

وصمت عبد العال قليلا وهو يحدق فى وجه ابنته الذى بدا يختفى مرة أخرى فى الظلام بعد ان أوشكت نيران القش ان تخمد ثم قال محولا مجرى الحديث : « يالله ناكل بقى .. الاكل ســـخن خلاص » . وقرب الاناء النحاس من البنتين وتلاقت الايدى داخل الاناء .. تغمس فيه لقيمات أهل العيش الجـاف وترتفـــع بها فى

سرعة ... وتقدمت الصغيرة قليلا للتمكن من الطعام ... واستمرت تأكل وكانت قد نسيت سؤالها تماما .. !

كان المطر قد كف عن ان ينهمر . وعاد الصـــمت يخيم على المكان .. واثناء الطعام لم يتبادلوا اية كلمة صغيرة .. وانتهى الأب قبلهما من العشاء واشعل سيجارته الجديدة من علبة الدخان التى اعطاه اياها رشوان وهو فى طريقه الى المقبرة وفى صوئها ابصر وجه ابنتيه وقد لوث الطعام جزءا منه ... كانتا لا تزالان تأكلان ... وبعد ان انتهتا من طعامهما قالت امينه ...

ـ يالله نولع علشان نعمل لك الشاى يابه ...

ولكن عبد العال الذى كان يجذب انفاس سيجارته بعصـبية طارئة قال فجأة لابنتيه ...

ـ قومى ياامينه خذى اختك وروحى ...

ثم قال بعد فترة صمت : يمكن الدنيا تمطر تانى .. !

ـ خلينا معاك ... قالتها البنتان معا فى لحظة واحدة ... ولكن عبد العال عاد يتكلم بلهجة اكثر حدة

ـ لا ... انت لازم تروحى انت وهى . الدنيا برد ...

واحست البنتان بان لهجة ابيهما قد تغيرت وداخلهمـــا ذلك الخوف الذى تشعران به .. حين يغضب . وظنتا انه نسى وعـده لهما بأن تبيتا معه ... كما ينسى أشياء كثيرة :

فقامتا تتحسسان طريقهما . وقام هو ليسير معهما حتى يقتربا من القرية ... وحملت امينة الاناء النحاس بما تبقى فيه من الحساء فوق رأسها ومشت تسنده بيدها وقال ابوها وهو يسير الى جوارها وفى يده فتحية ..

ـ روحى على دارنا الأول وخلى امك واخوك الصغير يتعشوا وبعدين ودى الحلة دار الشيخ عوض ٠ فاهمة ؟ ٠٠ وعاد عبد العال وحده هذه المرة بعد ان وقف قليلا يرقب ابنتيه تدخلان شـــوارع القرية ٠٠٠ كان يشعر بخوف غريب هذه المـــرة ٠٠٠ وهو يقطع الطريق الى المقابر ٠٠ كان قد الف المكان ولم يتغير فيه شيء عن ذى قبل ٠ نفس الاشجار ونفس الشواهد المرتفعة ونفس الأصوات التى تنبعث فى ليل اية قرية ٠٠ أصوات الطيور والحشرات ومع ذلك كان هذا الخوف الغريب يملأ نفسه كان عبد العال يدرك فى وضوح هذا الخوف ، انه خوف من نفسه ، من تلك الفكرة التى برزت فى نفسه بشكل غريب ٠ كان يحاول عبثا ان يطردها من ذهنه ، انه لا يمكن ان يوافق على فكرة كهذه : ولكن لماذا ترك بنتيه تعودان الى البيت وقد كان ينتظر قدومهما بفارغ الصبر ؟ وازداد رعبا وهو يقترب من مكانه الأول وكان يخيل اليه انه سيجد الحاج أحمد واقفا أمام باب مقبرته بوجهه ولحيته ونظراته التى تنطق بمثل هذه الكلمات ٠٠ « كده ياعبد العال أبوك كان راجل طيب » كان لوالده مقبرة هنا ولم يعد بمقدوره ان يتعرف عليها لطوال العهد ولأنها كانت لا ترتفـع كثيرا عن الأرض ٠ كان أبوه حقا رجلا درويشا ولكنه كان فقيرا ٠ كان عبد العال يعتقد ان قدرة الموتى لاحد لها ٠ وانهم يعرفون كل ما يخطر ببال الاحياء ٠ ولكن لماذا كل هذا الخوف ؟ ماذا فعل ؟ انه لم يفعل شيئا بعد ولا يمكن ان يفعل شيئا كهذا ٠ هل هو مسؤول عن كل مايخطر بباله ؟

وتقدم فى خطوات وجلة الى باب مقبرة الحاج أحمد ، كان الباب مغلقا كما هو وتلمس مقبض الباب واحس الصدأ يعلو كل قطعة فيه والصمت يسود المقبرة ويسود كل المكان حوله عدا تلـك الأصوا تالليلية الرتيبة التى امست جزءا من هذا الصمت لاتعكره ولا تشوبه !

وجلس وهو يشعر بنوع من الهدوء يتسلل الى نفسه «لاينبغى أن يترك نفسه لمخاوف لا وجود لها · لقد سمع الواعظ يقول يوما « ان الله لا يحاسب الناس على مايخطر ببالهم « فليجلس وليصنع شايا وليفكر كما يحلو له فالله لا يحاسب الناس على تفكيرهم » ومرة أخرى اشعل النار فى القش وجلس يصنع الشاى ومرة أخرى عادت السماء ترسل رذاذا خفيفا كان يصيب وجهه احيانا وعاد يتصور الشيخ عوض ملتفا فى اكفانه العديدة الجافة التى لن يصيبها الرذاذ ابدا · وفكر « انها ستظل جافة الى ان تبلى الى ان تتحول الى تراب ويتحول الشيخ عوض نفسه الى تراب » كان واقفا عصر الامس فى الدكان حين قدم رشوان ابن الشيخ عوض ليقطع لأبيه لقد قطع ثلاثة اكفان واحدا من الدبلان وواحدا من الحرير وواحدا من الشاهى ، كل كفن خمسة امتار · ونقد صاحب الدكان خمسة جنيهات ورقة واحدة دفعها فى لحظة ، خمسة جنيهات من المستحيل ان يحصل عليها هو دفعة واحدة حتى ولو شنق نفسه ، خمسة جنيهات تحل مشكلة الكسوة لعدة سنوات ··· »

وتعجب ان الناس الذين يملكون أوراقا كثيرة من فئة الخمسة جنيهات يسيرون فى الطرقات كما يسير غيرهم دون ان يبدو عليهم شىء وتضايق هذه المرة من تفكيره هذا :

لماذا يسترسل فى هذه الافكار ؟ وتذكر ان الشيطان يسكن المقابر كما سمع من بعض الناس ··· ربما كان هو الشيطان الذى يوسوس له بهذه الأفكار ···

« اعوذ بالله من الشيطان الرجيم » · قالها بعصبية وتذكر كلمات رشوان : « ياعبد العال انت راجل طيب وتستاهل الخدمة وعلشان كده عاوزك تبات عند تربة أبويه اليومين دول »

« اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠ » كررها هذه المرة بصوت مرتفع وخيل اليه انه يسمع صوت ابنته امينة تناديه « آبه ٠٠ أبا عبد العال ٠٠ » وخاف ٠٠٠ خاف من الصوت الذى يشبه تماما صوت ابنته ٠ كان الصوت يزداد وضوحا وعبد العال يزداد خوفا ٠٠٠ ولم يسترد عبد العال نفسه الا بعد ان ابصر ابنته امينة تقترب منه ٠٠٠ وفى يدها اختها الصغرى فتحية ٠٠٠ لقد اصرت على ان تعود معها ٠٠٠ وقالت امينه ٠

ـ احنا نسينا الجلابية اللى كان العشا جاى فيها بتاعة دار الميت ٠٠ وامى قالت لنا ارجعوا هاتوها لحسن تضيع ٠٠٠

وكاد ان يستبقى ابنتيه هذه المرة لتبيتا معه ٠ ولكنه خجل من نفسه : ماذا تظن البنتان ؟ ربما ظنتا انه خائف ! وبحث معهما عن الجلابية التى استعملاها كصرة يلف فيها العشاء ومشى يوصل ابنتيه مرة أخرى الى مقربة من القرية وفى الطريق كانت عيناه تكادان تلمحان كل مافى ثوبيهما من خروق ٠٠٠ واذناه تلتقطان رعشة جسديهما الصغيرين ٠ وحين عاد الى المقبرة لم يشأ ان يظل جالسا فى مكانه الأول تستبد به الافكار الشيطانية ولكنه لم يكد يسير بضع خطوات حتى طرأ على ذهنه خاطر غريب : اخذ يعد المقابر وتصور ان كل قبر يضم عشرات الموتى فالميت بعد وقت ليس طويلا جدا يخلو مكانه ٠٠٠ فيصبح بمقدور الناس ان يضعوا الى جواره ميتا آخر فى نفس المقبرة وربما كان هذا هو السبب فى ان القرية قد زادت جدا ولا تزال المقابر فى حجمها القديم لم تزد كثيرا ٠ وراح يتصور ان كل ميت قد قدم الى هذه المقابر كان ملفوفا فى ثلاثة اكفان حتى افقر الناس لايبخلون عليه ، بالاكفان الثلاثة من اى نوع ، واخذ يتخيل آلاف الامتار من القماش وقد بليت تحت هذا التراب اللعين وبلى أصحابها معها ٠٠٠ !

لماذا يصرون على ان يكفن الميت فى ثلاثة اكفان مادامت كل هذه الاثواب تبلى ويبلى اصحابها ؟ وتصور ان شريطا عريضا من القماش ينبعث من هذه المقابر يشده رجلان · ان هذا الشريط يمكن ان يغطى القرية كلها ويصنع فوقها خيمة كبيرة لا يخترقها المطر ·

كان عبد العال لايزال يسير بين المقابر وفجـــأة توقف عن السير · كان قد سمع صوتا غريبا على مقربة منه وحدق فى الظلام وهو يتجه فى حذر نحو مصدر الصوت ، كان هناك حيوان فى حجم الكلب يعمل يديه فى مدخل مقبرة سرعان ما ادرك انها مقبرة الشيخ عوض نفسه · وفكر عبد العال سريعا وهو يقاوم رعبا مفاجئا هـز ركبتيه واشتدت قبضة يده على العصا التى يحملها معه · وتراجع قليلا الى الوراء وجلس مختبئا خلف شاهد مقبرة قريبة وتحسست يداه بعض الاحجار المبعثرة حوله · لقد فضل الا يشتبك مع الحيوان مباشرة وقذفه بمجموعة من الأحجار سرعان ما افزعته دون ان يجد فى مواجهته خصما واضحا يهاجمه ·

وفكر عبد العال ان يتخلص من معاودة الاشتباك مع هذا العدو الذى لايعرف مدى قوته فأشعل النار فى بعض ما تبقى لديه من القش فالحيوانات تهرب من منظر النار ، وفى ضوء النار المشتعلة ابصر عبد العال الآثار التى احدثها الذئب فى مدخل المقبرة · لو انـــه تأخر قليلا لتمكن الذئب من مهاجمة المقبرة والفتك بجثة الشـــيخ عوض وبالتالى بالاكفان الغالية الثمن !

وفكر عبد العال وهو جالس ان ذئابا كثيرة تقوم بنفس المهمة بالنسبة لجميع الموتى وان الاكفان كلها تتمزق فى نهاية الأمر على يد الذئاب بل ان هذا الذئب نفسه سوف يعاود الهجوم بعد ان تنتهى ليالى حراسته ·· !

وعادت الفكرة اللعينة تملأ رأسه : مادامت هذه الاكفان تبلى أو تتمزق فى نهاية الامر لماذا لايكتفون بثوب واحد للميت ؟ لماذا هذه الاثواب الثلاثـــة ؟ لو ان فى البلدة رجلا عاقلا مثل الحاج أحمد لوقف وقال بأعلى صوته « يابلد لازم نكفن الميت فى كفن واحد وبقية قماش الكفن نفرقه على الناس الغلابة » !

ولكن الحاج احمد مات ولم تنجب القرية رجلا مثله بعد ٠

وشعر عبد العال بأن مايفعله نوع من العبث ان يظل فى هذا البرد يحرس جثة لثلاث ليال وفى الليلة الرابعة يأتى لص من غير البشر لينهى كل شىء ٠

وتخيل وهو لا يزال جالسا مكانه ورعدة خفيفة تتمشى فى كل جسده تخيل واحدا من هؤلاء الذين يسرقون اكفان الموتى ٠٠٠ تخيله وهو يحاول ان يتلمس طريقه داخل المقبرة ٠٠٠ والظلام هناك اشد منه مرة ما هو فى الخارج ٠٠٠ ويداه تحاولان ان تفكا الاربطة ٠٠ ترى ماذا يمكن ان يفاجئه وهو فى ذلك المكان المظلم ٠٠ ؟ الملائكة تزور الميت فى أول ليلة ويسألونه عن أهل الدنيا ؟ ! من المؤكد ان اشياء رهيبة يمكن ان تقع فى لحظة كهذه ٠٠٠ ومع ذلك فقد صدمته حقيقة كان يشعر بها فى صمت ٠ وهى ان هؤلاء اللصوص يسرقون الموتى فعلا رغم تلك الأشياء الرهيبة ٠ وانه هنا الليلة لهذا السبب ! لاشك ان اى ذئب احسن حالا منه لأنه لايفكر فى كل هذه الاشياء وهو يهاجم الموتى ! وازداد توتره ٠٠٠ فقرر ان يعاود المسير ولكنه هذه المرة لم يبتعد عن المقبرة ٠٠٠ كان يدور حولها واحس ان ركبتيه ترتعشان ، لم يدر اذا كان من البرد ام من الخوف ؟ كان يريد ان يتخلص من هذه الافكار التى بدأت تعذبه فعلا ٠٠٠ ان سرقة الاحياء اسهل جدا من سرقة الموتى ٠ ومع ذلك فهو لم يسرق فى حياته أى شىء !! فكيف امتلأ رأسه بهذه الخواطر اللعينة !! ؟ وفكر فى ان

يعاود اشعال النار ·· وحين ارتفع لهيبها هذه المرة وقعت عيناه بالرغم عنه على مدخل المقبرة ولاحظ جيدا الآثـار التى احدثهـا الذئب · ولذلك بدأ يفكر فى ان عليه ان يعيد ترميم المكان الذى هدمه الذئب اذ ماذا يقول لأهل الميت لو رأوا هذا الأثر فى الصـباح ؟ واقترب من مدخل المقبرة وراح يتلمس الجزء الباقى من السد فاذا به ينهار فجأة تحت يده · وغمره رعب ساحق وهو يشاهد المدخل المظلم امام عينيه دون ان يبصر شيئا داخله واحس كأن مدخل القبر فم حيوان غريب يوشك ان يبتلعه · وكادت تفلت من فمه صرخة هائلة · وتطلع حواليه فجأة فأحس كأن شواهد القبر تمتد نحوه فى سرعة فائقة · وتصلبت يداه على مدخل المقبرة وسمع اصواتا غريبة غامضة تنبعث من كل شبر حوله ·· ومرت لحظات لا يدركها كان خلالها يحاول ان يعى هذه الاصوات الغريبة الغامضة ··· وبدأت الأصوات تختفى من كل مكان حوله · ولم يعد يسمع سوى دقـات قلبه تلهث فى صدره · وعادت شواهد القبور تقصر شيئا فشيئا ·· وبدأ ظلام المقبرة الدامس يشف عن جسم ابيض ممـدد فى ركن من المقبرة المظلمة ··· كان الجسم يبدو ساكنا ككل شىء حوله · ومرت لحظات كان عبد العال يتوقع خلالها ان يحدث شىء غـريب ، ان يتحرك الجسم الراقد · وكان هو نفسه خلال هذه اللحظات عاجزا عن الحركة · ولكن الجسم ظل ساكنا كما هو · كان الظلام يغشى جوانب المقبرة · وكانت هذه الجوانب هى مايخاف عبد العال ان يتطلع اليه كان يحس فى كل جانب مجهولا لا يدرك كنهه فى انتظار ان يتطلع اليه لتلتقى عيناه بعينيه · وبلا شعور وجد عبد العال يده تمتد الى جيبه لتخرج علبة ثقاب واشعل عودا منها · بدت فى ضوئه هذه الجوانب المخيفة كما ابصرها هو بنفسه عصر الامس حين اشترك فى دفن الشيخ عوض · فراغ تتناثر فيه بعض العظام ·

وفجأة هبت ريح باردة أطفأت عود الثقاب وساد الظلام مرة

أخرى وعاد الرعب يستولى على قلب عبد العال فقد عادت الاصوات تنبعث هذه المرة حقيقة من كل شبر من الأرض · كانت اصواتا قوية واضحة ورتيبة · وذهل عبد العال عن نفسه للحظات احس بعدها وقع قطرات حادة من المطر تلسع وجهه وكتفيه · وأدرك ان المطر هو مصدر الاصوات القوية الواضحة · ووجد نفسه يندفع داخل المقبرة ليحتمى من المطر · وفى هذه اللحظة احس بهدوء بارد يتسلل الى اعصابه ، هدوء مشوب بغيظ وحنق على كل من حوله ، على المطر وعلى نفسه وعلى الموتى وعلى الاحياء ··· ماذا جرى له ؟؟

واشعل عودا آخر من الثقاب حرص على ألا ينطفىء · وفى ضوئه أبصر الجثة هادئه مستسلمة لا حراك فيها بل عاجزة تماما عن أى حركة · وابصر المقبرة خالية تماما الا منه · هو وحده الذى الذى يمكنه ان يصنع أى شىء لا أحد هنا سواه فلماذا يخاف ؟ انه وحده الشخص الحى فى هذه القرية الميتة · الشخص الذى يحتاج حقا لهذه الاثواب التى لن تبعث الدفء فى جسد ميت · حسنه ثوب واحد · وتصور ابنتيه ترقدان الآن على حصيرة ترتجفان من البرد · وتلمس الكفن بيديه · كان جافا ناعما · اصطدمت يده بكوع الجثة فتحركت الجثة قليلا فارتجف للحظة ··· وعاوده ذلك الهدوء البارد وذلك السخط على كل شىء · لو ان الحاج احمد حى لوافقه على فكرته ·· فكرة ان يبقى للميت كفن واحد · انه لا يفعل شيئا حراما سيغفر الله له ان فتح المقبرة ، كان ذلك بدون قصد ! كان يريد سدها وسيفعل ذلك بعد خروجه · سوف يحكم اغلاقهـا ولن يشعر احد بشىء ، سوف يصبغ القماش وسوف يلبسه هو وابنتاه فالحى أبقى من الميت وامتدت يداه بسرعة تفكان الاربطة ··· لقد انطفأ العود ومع ذلك حدث كل شىء فى غاية البساطة وبسهولة لم يكن يتصورها وحين كانت يداه تضغطان احيانا على جزء من جسده كان يود ان يقول له « لامؤاخذه ياشيخ عوض » لقد ترك الكفن الداخلى فلم يبصر

وجه الحاج عوض وكان يخشى ان يبصر وجهه • وفى لحظـــات خاطفة كالبرق ••• كان يتصور انه سيموت يوما كالشيخ عوض وسيكون مثله عاجزا ••• وفى تلك اللحظات الخاطفة كان يشـــعر وهو حى افضل من اى ميت مهما كان غنيا كالشيخ عوض • وفى اللحظات الأخيرة عاوده الاضطراب فلم يحســـن ربط الجثة كما كانت وخرج من المقبرة وأحكم سدها واخفى الكفن فى مكان أمين ليتصرف فيه بعد ان تنتهى ايام حراسته !

***

كان الناس فى القرية يسمعون الضجة من بعيد ••• فيترك كل شخص عمله ويسأل • وفى البداية لايكاد يصدق مايقال له • ولكن الضجة تقترب والاصوات تتضح (عبد العال ياوش النملة مين قال لك تعمل دى العملة) ويخرج الشخص تاركا عمله ولسرعته قد يصدم طفلا صغيرا يلعب فى الطـريق أو يدوس دجاجـــة ترقد فى الشمس أو يخبط بكتفه عجوزا يتلمس طريقه حتى اذا بلـــغ رأس الشارع مرمى بصره فشاهد موكبا صاخبا يزحم جوانب الطريق ويتقدم فى بطء فيجرى نحو الموكب الذى يبدأ بمقدمة من الاطفال تختفـى اصواتهم الصغيرة خلال الاصوات الخشنة التى تنبعث من قلـــب الموكب حيث يزدحم عشرات الشبان من مختلف الأعمار حول رجـل لا يكاد يظهر حتى يختفى • وفى اللحظات التى كان يظهر فيها الرجل خلال الاذرع الممتدة المتشابكة التى تتجاذبه كان الناس يعاودون النظر ليتأكدوا انه عبد العال حقا فقد كانوا يبصرون وجها شاحبا كوجوه الموتى ونظرات بلهاء تختفى فيها معالم اى تعبير • وكان يلتف حول عنقه قماش كفن ناعم من الشاهى الفاخر وفى اللحظات التى كان ينحسر الكفن على كتفيه كانت تبدو ثيابه وقد تمزقت تماما فلم تكن تقوى على كل هذا الجذب !

كان الموكب يتزايد بين لحظة وأخرى وسطوح المنازل ونوافذ البيوت تمد الموكب بعشرات من الوجوه النسائية المتطلعة وبعشرات الأصوات الهامسة المستفسرة وبعشرات النظرات التى تختلف فيها معالم التعبير ولكن الموكب ظل محافظا خـــلال نموه على نظامـه التدريجى فقد كان يبدأ دائما بمقدمة ضئيلة مفككة من الاطفال التى تبدو فى صخبها كأنها منعزلة نوعا ما عن قلب الموكب ثم يتدرج فى الارتفاع والتماسك حتى يصل الى ذروته حيث يلتف عشرات الشبان حول عبد العال ثم يتدرج مرة أخرى فى الانخفـــاض والتفرق فى مجموعات خلفية من الأطفال والنســـاء الذين لا يمكنهم متابعـــة الموكب ٠ كان الموكب يسير فى بطء ويزداد تماسكا خلال ســـيره كسلحفاة جبلية سجينة فى قالبها الحجرى تحمله حيث سارت ولكنها ابدا لا يمكنها ان تتحرر منه ٠٠٠ !

وكان الموكب يبصر طريقه بعشرات الاعين التى تنبعث منهـــا نظرات تنم عن فرح خفى مستبد كما كان يعلن عن وجوه بهذه الكتل الصوتية التى تفصح خلال تدفقها عن رغبة غامضة فى التشفى ٠ وكانت عشرات الاذرع التى لاتكف لحظة عن الحركة داخل الموكب والتى كانت تتجاذب فى جنون اطراف الكفن تعلن عن هذه الحيوية الغريبة التى تتمتع بها هذه السلحفاة الجبلية ، هذه الحيوية التى كان يمدها كل شارع وكل حارة بفيض من الدماء الحارة ولم يكن الموكب يسمح لاصوات فرد مهما يكن ان تظهر فيه ولا لمشاعر بعض الشيوخ أو النساء ان تظهر خلال مشاعره المتدفقة بفيض من السخط الهيستيرى المرح ، كان يمضى فى طريقه كحيوان غريب لا يعبأ بما حولهتقوده غرائزه الغامضة الى حيث لا يعرف احد ، حتى الذين يسيرون فى داخله ٠ وكان هذا الحيوان ينشر حوله وفى كل مكان يمر به جاذبية غريبة تشد بعض الناس اليه وتدفعهم بطريقة لايستطيع أحد ان يتكهن بها كما كانت أصوات الموكب تظهر خافتة لتجعل كل

انسان يترك عمله فقد كانت تختفى مرة أخرى بالنسبة للشوارع التى يمر بها فيعاود كل انسان عمله ٠٠٠ وإذ ذاك فقط تظهر همسات الناس فى الطريق : قالت سيدة كانت لاتزال تتابع الموقف المختفى بعينين حزينتين لحاراتها ٠

ـ يا اختى والله صعب عليه دا حايموت بالحيا فى ايديهم وهم كده زى الوحوش ٠

قالت أخرى :

ـ مايصعبش عليكى غالى ياأختى يعنى كان حد يقول له يروح يسرق الكفن ؟ دول ناس آمنوه لأنه راجل طيب يقوم يعمل كده ٠

وعلقت ثالثة :

ـ والله ماتخافى الا من الطيبين دول ياما تحت السواهى دواهى ٠

وعادت الأولى تقول :

ـ هو لو ما كانش طيب كان اتمسك ٠ أولاد الحرام اللى بيسرقوا كتير وكمنهم ملطمين بيعرفوا يخبوا سرقتهم انما ده كونه راجل طيب مسكوه وهو رايح يودى الكفن للراجل يصبغه الراجل شك فى القماش قال شاريه منين يا عبدالعال ؟ بعيد عنك الراجل اتلخبط ماعرفش يرد كويس ٠ قام شال الكفن عنده وبقت فضيحة ٠

وقالت سيدة أخرى كانت صامتة طول الوقت :

ـ يا شيخه انتى وهيه اسكتى دا غلبان يظهر جرى لعقله حاجه انتو عارفين لما الناس اتلموا عليه ومسكوه عمل ايه ؟ فضل يزعق يا بلد غجر يا بلد زى النمل ماتتلمش الا على المصايب كلكم

جايين النهاردة تتفرجوا على ؟ كنتم فين زمان ماحدش كان بيجى يبص فى وشى ويقول ازاى حالك ؟ ايه يا اخواتى لم الحوش ده كله اللى عمره ما كان يتلم ولا يسأل عن حد ؟ ايه جمعكم دلوقــــت ! وبعدين فضل يزعق ويعيط وهو يقول ـ يرضيك ياعم الحاج أحمد ؟ يرضيك كده انت فين تحوش عنى النمل دا اللى جاى ياكلنى بالحيا !

وعادت السيدة الأولى تقول :

ـ يا اختى ربنا يلطف بيه لازم صحيح جرى لعقله حاجه دا طول عمره راجل طيب عمره ماعمل حاجة وحشةوالله يا اختى بناته اللى صعبانين عليه دلوقت الناس طول عمرهم تفضل تعيرهم بالحكاية دى وهم ملهومش ذنب !

وفى هذه اللحظة قالت عجوز كانت صامتة طول الوقت :

ـ ياولاد ياما بيجرى وياما شفنا . حاجات زى دى كثير ياما حصلت فضايح لناس لكن الناس بتنسى وبكره النـــاس حتنسى الحكاية دى وبكره ياما حاتحصـــل حكايات جديدة تنسى النـاس الحكايات القديمة !

فى الطـــابور

كانت الساعة تقترب من السابعة صباحا وانا اجتاز مدخل قسم بوليس روض الفرج • وفى هذه اللحظة كانت مكاتب موظفى القسم كلها لاتزال مغلقة فالعمل الادارى يبدأ عادة فى الثامنة صباحا • ومع ذلك فقد حضرت قبل موعد العمل بساعة كاملة لأجد لنفسى مكانا فى الطابور الذى يضـــم العشـــرات ممن يجددون بطاقاتهم الشخصية ••• !

كنت قد حضرت امس الى القسم فى حوالى الساعة العاشرة صباحا فوجدت طابورا طويلا يمتد بجوار حجرة البطاقات •• كان الطابور يضم أكثر من مائة شخص وكان يتحرك بســـرعة لا يمكن ملاحظتها الا اذا وقفت سبع دقائق على الاقل وهـــى المـــدة التى يستغرقها اتمام أوراق شخص واحد • واذ ذاك يتحـــرك الطابور حركة تناسب المكان الذى كان يحتله هذا الشخص ••• !

ولم افكر بطبيعة الحال فى الانضمام لهذا الطابور ، فالعمل ينتهى فى تمام الساعة الثانية بعد الظهر كما عرفت من أحد العساكر ٠٠ ومن المستحيل ان أصل الى الكاتب المختص فى مثل هذا الوقت اذا اخذت مكانى فى نهاية الطابور ، وعملت بنصيحة نفس العسكرى الذى قال :

ـ بكره تكون هنا بدرى وانت تقف فى أول الطابور ٠٠٠

وفى الواقع اننى قبل ان أفكر فى تنفيذ نصيحة العسكرى فى الحضور مبكرا ، فكرت فيما اذا كان من الممكن ان أجدد بطاقتى بطريقة أخرى غير طريقة الطابور هذه ٠ واستعرضت فى رأسى جميع معارفى واصدقائى فلم أجد بينهم ـ بكل أسف ـ شخصا تربطه أية صلة بقسم بوليس روض الفرج بالذات ٠ اذ ذاك بدت لى نصيحة العسكرى كنصيحة عملية ومجدية ، فضلا عن ان فيها ميزات لا تنكر ٠٠ فالطابور أحد مظاهر الديمقراطية فى حياتنا وسوف تكون تجربة رائعة ان آخذ مكانى فى الطابور وان اخضع لنظامه الصارم ، وان أمارس تجربة الديمقراطية فى مستوى غير مستوى الكلمات ٠٠٠

وحين اجتزت مدخل القسم فى تلك الساعة المبكرة اغرانى هدوء المكان وخلوه بأن اتأمل مبانى القسم الضخمة التى تشبه المبانى الاثرية ـ كان القسم مكونا من طابقين وكانت تمتد بجوار حجرات الطابق الأول ممرات ترتفع على حافتها اعمدة غليظة كتلك التى تصنع افاريز الشوارع القديمة بالقاهرة كشارع كلوت بك ومحمد على ٠٠٠ واتجهت صوب الممر الايمن الموصل فى نهايته الى ممر داخلى يمتد امام حجرة البطاقات ، ويطل على ساحة السجن الداخلية التى يحيط بها سور حديدى يسمح برؤية مافى داخلها ٠٠ !

كنت اتصور اننى قد لا أجد أحدا هناك فى تلك الساعة المبكرة وسوف تكون فرصة طيبة لأتفرج على أحد أقسام البوليس من الداخل فلم أكن قد شاهدت فى حياتى « قسم بوليس » سوى مرتين : المرة الأولى حين استدعيت للتجنيد ، أما الثانية فكانت حين استخرجت البطاقة لأول مرة منذ ثلاث سنين وفى كلتا المرتين لم تطل زيارتى للقسم سوى وقت قصير ...

ولم أكد اقترب من الممر امام حجرة البطاقات حتى فوجئت بنفس طابور الأمس لايزال واقفا فى ذات المكان ... وفى الواقع اننى كنت فى حاجة الى بضع دقائق لأتحـــرر من تأثير هذه المفاجأة ، ولأدرك ان الطابور اليوم أقل جدا من طابور الأمس ، فقد كان يتألف من حوالى خمسين رجلا ... فقط ... !! ودون ان أفكر كثيرا فى الموضوع ، أو ان اسأل نفسى متى حضر هؤلاء السادة ، وجدتنى اتجه الى نهاية الطابور لاحتل آخر مكان فيه ..

وبعد لحظات قصيرة بدأت أفكر فعلا فى الموقف . كنت اعتقد اننى سأكون الأول فى الطابور اليوم أو على الأقل من العشـــرة الاوائل وها انذا اتمتع برغم قدومى مبكرا ساعة كاملـــة بلقـــب الأخير .. !!

ولحظتها خيل الى ان جميع من فى الطابور يديرون رؤوسهم خلسة ليمتعوا عيونهم لحظة برؤية صاحب هذا اللقب ... ولحظتها أيضا وددت ان أرفع رأسى وصوتى لأقول لهؤلاء جميعا ... ايها السادة لا داعى لكل هذه الشماتة ، فلقد تمتع كل واحد منكم لحظات بهذا اللقب ، ومادام هناك طابور فلابد لكل شخص فيـــه ان يكون الأخير مرة واحدة على الأقل .. ! ومادام الطابور سيتحرك فلابد اننى سأكون فى لحظة ما ، الاول ..

ووجدتنى امد رأسى لأبصر هذا (السـعيد) الذى يقف فى بداية الطابور ، وكنت أظن فى هذه اللحظة انه لا بد قد قضى ليلة أمس ضيفا فى هذا القسم ·· ولم ابصر سوى رأس تعلوه طاقية بيضاء ، أما ما تحت الرأس فلم يكن بمقدورى ان ابصره من مكانى ·

ووجدتنى مرة أخرى أعد الرؤوس التى تتتابع خلف هذا الرأس الأبيض · واحد ·· اثنين ·· ثلاثة ·· أربعة ··· خمسة ····· بعض الواقفين يحركون رؤوسهم فأخطىء العد ··· ستة ··· سبعة ··· ثمانية ··· وبدأت ابصر فى من اعدهم شيئا أكثر من الرأس ·· الاكتاف تظهر ·· ثم الظهر ·· ثم القامة كلها ··· وحين انتهيت الى الشخص الذى امامى كنت اكتشف ان الطابور لا يزيد عن اربعين شخصا ·· واسعدنى هذا الاكتشاف ، فقد اصبح من المعقول ان يدركنى الدور فىهذا اليوم ·· ربما أصل الى بداية الطابور فى الساعة الواحدة بعد الظهر كأن هؤلاء جميعا قد تآمروا ضدى فى هذا الصباح ·· وفى الواقع اننى كنت فى حاجة الى ان الغى من شعورى الاحساس بهذا الطابور اللعين ، الذى يمتد امامى كثعبان ضخم يحول بينى وبين الوصول الى باب الحجرة التى ساجدد فيها بطاقتى ·· وساعتها اكتشفت ان فى يدى جريدة (·····) واننى لم أقرأ فيها حرفا بعد · وبسطت الجريدة فى يدى وبدأت عيناى تقفزان فوق العناوين داخل الصفحات · لم تكن لدى اية رغبة فى قراءة أية تفصيلات بل لم اكن امضى فى قراءة أى موضوع أكثر من سطور ·· لا شك ان القراءة تحتاج الى جلسة هادئة وقدح من القهوة · اما فى مثل هذا الموقف فلا شىء اكثر من قراءة العناوين ، ووجدتنى بعد دقائق اطوى الجريدة فى يدى وافضل ان اتفرج على قسم البوليس فلم اكن قد ابصرت كل شىء فيه بعد ·

ولم أكد التفت خلفى حتى وجدت ان أكثر من خمسة اشخاص

قد وقفوا ورائى دون ان أحس ، ومع اننى لم أتقـــدم بذلك خطوة واحدة الى الامام ، الا ان ذلك سرنى حقا ، فلم أعد آخر شـــخص فى الطابور ، بل واكثر ٠٠٠ من ذلك ، لقد وجدت نفسى اتأمل الفراغ الممتد وراء الطابور واتخيله وقد امتلأ بعشرات الواقفين ، اذ ان الوقت لايزال مبكرا ٠٠ لاشك مكانتى داخل هذا الطابور بعد ساعة واحدة سوف تكون عظيمة للغاية ٠ فمن الممكن ان أصـبح فى ذلك الطابور الأول أو على الأقل فى منتصفه ، ولاشك ان من سيقفون فى النهاية سوف يحسدون أولئك الذين اسعدهم الحظ أو الاجتهـــاد لا ادرى ، فاحتلوا مكانهم فى المقدمة من امثالى ٠٠٠ !

والواقع اننى حتى هذه اللحظة لم أكن أجد فى تفكيرى هذا ما يضحك ، فلا شك ان أعظم العقلاء لو وقف فى مكانى هذا لما فكر بغير هذه الطريقة ، فنحن فى طابور وما دام الأمر كذلك فلابد ان يكون هناك متقدم ومتأخر وحساد ومحسودون ٠٠ ووجدتنى اتابع التفرج على القسم ، كان الهدوء يسود المكان سوى وقع خطوات الجنود المنتظمة بأحذيتهم الثقيلة وهم يعبرون الممرات سراعا يحملون بعض الأوراق ، أو يقتادون بعض الاهالى أو يقفون ويضـــربون الأرض بمؤخرة أحذيتهم تحية لضابط التقى بأحدهم فجأة ٠٠٠ أما الطابور فلم تكن تصدر عنه أصوات تذكر الا من بعض الأشخاص الذيـــن يبدو انهم اتوا معا ، وحتى هؤلاء كانوا يتحادثون بأصوات هادئة كأنما أجبرهم على ذلك الهدوء الشامل الذى يغمر المكان ٠ والحق ان الطابور كان يضم أشكالا من البشر ليس من السهل ان يتصل بينهم حديث ، فقد كانت هناك قمصان حريرية وأحذية بيضاء تلمع الى جوار جلاليب نظيفة وأخرى متسخة وملابس شـــغل لبعض العمال الذين اتوا بملابس العمل ، وأحذية قديمـــة وأقدام بدون أحذية ٠٠٠ وكهول تقدم بهم العمر وشبان من مختلف الاعمار ٠

كان من الصعب فعلا ان تتصل الاحاديث طويـــلا بين هذا الخليط ٠ أنا نفسى لم أجد لدى أى دافع لأن ابدأ حديثا مع اى واحد من زملاء الطابور ، فقد كان الذى يتقدمنى شاب يرتدى قميصا متسخا يوجد به زرار واحد ، وتحته مباشرة فانله تكشف خروقها عن لون صدره الأسمر الكثيف الشعر ، ويضم اســـفل القميص المفتوح بنطلونا أزرق قصيرا تبرز من اسفله قدمان حافيتان ٠٠٠ أما الرجل الذى وقف ورائى فقد كان يبدو ابله حقـا ٠٠ فعيناه جاحظتان وجلبابه مفتوح الصدر وتغطى رأسه طاقية ذات حائط من القماش الأصفر الصلب ٠٠ وحين التقت عيناى بعينيه فى نظرة عابرة ، خيل الى اننى لو اطلت النظر اليه لحظة أخرى لكلمنى على الفور ٠ فقد كانت تطل من عينيه رغبة فى الحديث لاتقاوم ، ولكن سرعان ما استدرت أمامى فلم تكن لدى أية رغبة فى ان أتحدث مع أى شخص ٠٠٠ !

واشعلت سيجارة ٠٠٠ ومع ان التدخين عمل تابع ، اعنى انه فى العادة يصحب عملا آخر ، فنحن ندخن حين نقرأ أو حين ننهمك فى عمل ما ٠٠ أما فى مثل هذه اللحظات فانه يصبح عملا مقصودا يؤديه الشخص على مهل ويستمتع بكل جزئية فيه ٠٠٠ الا اننى وربما بحكم العادة ، وجدت يدى تمتد لتبسط الجريدة مرة أخرى ٠ كان من عادتى حين اقرأ ان أدخن ٠ وهأنذا أجد نفســى اعكس الحكاية فأقرأ حين ادخن ٠ لقد ارتبط العملان حتى أصبح كل منهما يستدعى الآخر ، وفى الحق اننى لم أكن قد قرأت شيئا فى الجريدة أكثر من العناوين وبدأت ابحث عن شىء مثير فى الجريدة ، شىء يحملنى على ان اقرأ وانا واقف ضمن طابور طويل قد يغرينى بأى شىء سوى القراءة ٠٠٠ وتوقفت عيناى عند تحقيق صحفى عن الهند لكاتب اعرف ولعه الشديد باكتشاف المفارقات والمتناقضات فى كل ما تقع عليه عيناه ليجعلك تشعر ان الحياة كلها مفارقــة

لا تستحق منك سوى ان تبتسم لها فى سخرية ، واحســـست ان مصاحبة هذا الكاتب فى مثل هذه الظروف امر لا مفر منه • لقد وقع كلانا فريسة للآخر !

واكتشفت فى النهاية اننى لا ازال فى نفس المكان الذى بدأت منه رحلتى الى الهند ، فلم يكن الطابور قد تحرك خطوة واحدة الى الأمام كنت فقط الاحظ ان حركة جانبية تحدث فى الطابور ، مصدرها أولئك الذين يمدون رؤوسهم الى الامام ليبصروا مدخل الحجرة • وتعددت حركات الرؤوس تصحبها همهمات خافتـــة كانت تعلو احيانا • ومن هذه الهمهمات العالية عرفت ان باب الحجرة قـد فتح وان الموظف المختص قد دخل منذ لحظات ولكن لم يبدأ العمل بعد • ونظرت الى ساعة يدى ، كانت تشير الى الثامنة ونظرت خلفى •• كان الطابور قد امتد الى الوراء حتى أوشك ان يحتل الفراغ الخلفى بأكمله • وكنت اذ ذاك اعتبر من الواقفين فى النصف الأول من الطابور • وكان وضعى فى الطابور ممتازا بلا شك ، كان يكفى ان ادير رأسى الى الخلف لاكتشف هذه الحقيقة الهامة فى جميع العيون التى تمتد ورائى لتصنع دوائر لامعة يتخللها خيط دقيق من القلق والترقب ••• ! ولا أدرى ما الذى جعلنـى أتخيل أن الطابور قد تكون بهذه الطريقة •

«جاء رجل ضخم جدا وراح يمد يده فى كل ماكن ، فى الشوارع والحوارى،فى العمارات والاكواخ،فى المصانع والمؤسسات والحقول •• ويجذب من كل مكان رجلا ويأتى به الى هذا الطابور ، ان هذا الطابور قطعة من الشعب • شـــريحة منه • فيها كل خصائصـــه العظيمة والوضيعة على السواء ••• وجعلتنى هذه الفكرة اشعر نحو الطابور باحترام غريب ، لم يخفف منه ان التقت عيناى فى نظرة خاطفة بعينى الابله الذى كان يقف خلفى • كنت اكاد المس الخيط الدقيق الذى يربط بين افراد الطابور ويخلق بينهم تجانسا

لا تلحظه العيون ... بيد اننى بدأت الاحظ فى نفس الوقت ان الطابور منذ بدأ الموظف المختص يمارس عمله لم يعد يسلك بطريقة واحدة . فالذين يقفون فى النصف الأول من الطابور ، بدأ يستغرقهم الاهتمام بالاوراق التى معهم .. فهم يعدونها ليتأكدوا من وجودها كاملة معهم ثم ينظمونها فى وضع خاص حتى يسهلوا على الكاتب مهمته . وهم يحرصون على نظام الطابور ولا يحبون ان يحتل أحد غير مكانه ... والذين اسعدهم الحظ ووقفوا بمحاذاة نوافذ الحجرة التى يعمل بها الكاتب .. كانوا يتمتعون بمسرى وهواء فى تلك المنطقة . وكان بمقدورهم ان يريحوا اقدامهم قليلا بأن يعتمدوا على حافة النافذة ، فضلا عن انهم كانوا يتسللون برؤية مايحدث داخل الحجرة . وكان بمقدورهم ان يلاحظوا سير العمل وان يخمنوا المدة الباقية لهم حتى يصلوا الى الكاتب المختص ... ! والواقع اننى بدأت أعد الذين يفصلون بينى وبين أول نافذة ...

أما الذين كانوا يقفون فى النصف الأخير من الطابور ... فقد كان سلوكهم مختلفا تماما . كان بعضهم قد ترك فى مكانه من الطابور حقيبة مثلا وجلس قبالتها على حافة المشى مفترشا جريدته ، والبعض الآخر قد اسند ظهره الى الحائط بينما نسيت بعض الجماعات انهم فى طابور فوقفوا متقابلين ليتكلموا بطريقة أفضل . كان سلوكهم مختلفا تماما ... حتى لقد اصبح نصف الطابور يبدو وكأنه كيان منعزل لا يربطه بالطابور سوى انه امتداد فوضوى له . والواقع اننى كنت احسد أولئك الذين يتحدثون معا فى نهاية الطابور ... كانت الفروق بينهم تتلاشى تدريجيا . كان الانتظار الطويل الذى يتوقعونه يصهر هذه الفروق ويخلق مجالا لحديث لا اعرف موضوعه ولكننى المحه على الشفاه . ربما كانوا ينكتون . بيد انه كان حديثا اروع من الصمت الذى يسود النصف

الأول ، كما يسوده النظام · وحتى هذه اللحظة وبرغم اننى كنت احسد المتحدثين خلفى ··· لم تكن لدى الشجاعة الكافية لاشترك فى اى حديث مع واحد من الزملاء الذين وضعتهم المصادفة ورائى وامامى ·· ! ان المصادفة تلعب دورا فى المكـــان الذى يحتله كل شخص فى الطابور ، لو اننى تقدمت قليلا أو تأخرت ، ربما كان رفاقى فى هذه الرحلة أحسن حالا · اما الآن فلا ادرى لماذا افقد كل شجاعتى حينما انظر الى عينى الابله الذى يقف خلفى · امـا الشاب الذى كان يقف أمامى فقد كنت مستعدا لأن اتكلم معه ··· ولكن مسحة من الضيق كانت تسيطر عليه جعلتنى احترم صمته !! ووجدتنى مرة أخرى أهرب من الطابور ولكن الى أين ؟ ·· لامهرب سوى الجريدة ··· واكتشفت اننى لم اقرأ فيها كل شىء بعد ··· ! وتنقلت عيناى مرة أخرى فوق العناوين ··· ولكن صوتا غريبـا ازال السكون السائد فى ارجاء القسم فى تلك اللحظة فأنسانى الجريدة ، وحين ادرت رأسى جهة مصدر الصوت كان الطابور كله قد ادار رأسه بنفس الباعث ، فساده للحظات نظام غريب وذابت فى ذلك النظام فوضى النصف الأخير ··· كان الباب الحديدى للسجن الداخلى يفتح محدثا ذلك الصوت ، وامام البـــاب وقف جاويش كادت ملامحه تختفى وراء الورقة التى يقرأ ما بهـا من اسماء · وبعد كل اسم كان ينتهى من ندائه · كان باب الحجز يقذف صبيا صغيرا يأخذ مكانه على الفور فى طابور يمتد داخل الفناء المحاط بسور حديدى والموجود امام باب السجن مباشرة ·· كان الجاويش لايزال مستمرا فى النداء والطابور لايزال يمتد فى فراغ الفناء الفسيح ·· كان هذا الطابور يختلف عن طابـــورنا تماما ، فقد كان يسوده تجانس غريب ··· فالاطفال تتراوح اعمارهم بين السابعة والخامسة عشرة ·· ملابسهم تتشـــابه الى حد كبير ، فكلها ممزقة فى مواضع مختلفة على الاكتاف أو الركبة ولونهـا

جميعا بلون العرق المختلط بالتراب · ووجوههم كلها تغالب النعاس بعيون نصف مفتحة ، وشعرهم الجاف يلتوى أو يتهدل على الجبهة التى لم تبللها ابدا قطرة من الماء ··· !

وحين انتهى الجاويش من النداء ··· كان الطابور يقف فى نظام تام وذراع كل صبى مشتبكة فى ذراع الصبى الذى يجاوره · وفى تلك اللحظة صدر عن الجاويش صوت لم افهمه تماما ، ولكن يبدو ان الاولاد يفهمون كل مايصدر عن الجاويش فجلسوا القرفصاء جميعا دون أن يختل نظامهم ·· ودون أن تتفرق أذرعتهم المتشابكة ··· واخذ الجاويش يعد الاولاد مشيرا بأصبعه فوق رؤوسهم التى لم يكن تصدر عنها اية حركة ··· ولم يكد ينتهى من العد حتى تقدم تجاه الجاويش الآخر الذى بدت ملامحه اذ ذاك متبلدة تماما لاتفصح عن شىء وصاح : تمام يافندم ···

ولا ادرى ما الذى جعلنى اذكر فى تلك اللحظة طابور التلاميذ فى فناء المدرسة · كان الشىء الغريب الذى اثارنى هو الهدوء الذى يسيطر على طابور الاولاد ··· بينما بدا لى واضحا انه من اصعب الأمور على الأولاد فى تلك السن ان يقفوا فى هدوء فقد كنا ونحن تلاميذ نكره الطابور جدا لاننا كنا فيه مطالبين بهذا الهدوء الذى لا نطيقه على ان ماحدث بعد ذلك منعنى من الاستمرار فى اى تفكير ·· لقد فتح باب الحجز مرة أخرى ·· اختفى الوجه ذو الملامح المتبلدة خلف ورقة أخرى وبرز الى الفناء طابور جديد· بنات تتراوح اعمارهن بين الثانية عشرة والعشرين · يرتدين ملابس قصيرة الاكمام يرتفع ذيلها الى أعلى الركبة ، فتيات يظهرن على البعد كتلميذات المدارس ··· ! ولم يكد يبرز هذا الطابور الجديد حتى سرت فى طابورنا الذى كان منذ لحظات هادئا تماما ، همهمة خافتة وندت عن البعض تعليقات سريعة استنكرها البعض

الآخر · ولا حظت الابله الذى كان يقف خلفى فوجدت عينيه لأول مرة تثبتان فوق شىء واحد ··· اما طـابور البنـــات فقد كان لا مباليا تماما · لم يستجب بأى شىء لهذه الهمهمـة التى كانت لا تزال تصدر عن طابورنا · كانت احدى البنات تدخن سـيجارة بينما اخذت بنتان تشربان الشاى الذى احضره لهما أحد العساكر ··· كانت معاملة العساكر لهذا الطابور مختلفة تماما عن طابور الاولاد ··· كانت وجوه الفتيات تبدو على البعد دون شكل واضح تطل من بعضها بقايا مساحيق باهتة · ولم يكـن يبـدو على هذه الوجوه اى تعبير خاص · كانت كل واحدة منهن تبدو كما لو كانت وحدها تماما ··· !

وتقدم أحد العساكر ليفتح باب الفناء الحديدى · وبدأ طابور الأولاد يخرج بنفس النظام : كل ولدين تتشابك منهمـــا الاذرع ، وفى نهاية الطابور كان يخرج صبيان حمل احدهما الآخر فـــوق كتفيه · وتدلت ساق الصبى المحمول مربوطة بمزق قديمة لثـوب ملطخ ببقايا دم ··· وهرول الصبى ليلحق ببقية الطابور وســاد الصمت طابورنا وهو يشاهد طابور الأولاد يخرج ليبتلعه الشارع · ليتلاشى فيه فيفقد كل خصائصه ··· !

ولم يكد يختفى طابور الأولاد حتى بدأت التعليقات تصدر عن طابورنا الذى لم يبد شيئا واحدا كما بدا فى تلك اللحظات ·

ـ دول الأولاد اللى بياخدوهم تحرى ·

ـ دول كل ليلة بييجوا هنا بيلموهـــم من الشـــوارع لأن ملهومش أهل ! ملهومش بيوت !

ـ مين قال لك ملهومش أهل ؟ اهلهم ولاد كلب تلاقى كـل واحد أبوه متجوز غير امه وسايبه يضيع فى الشوارع !

ـ ياعم دول حرامية ونشالين ٠٠ ولاد كلب ٠٠٠

ـ يعنى هم لاقيين شغل وبقوا حراميه ٠

ـ وهم يعنى يعرفوا يشتغلوا فى ايه ؟ هم اتعلموا يشتغلوا

ولأول مرة اشترك الابله الذى كان يقف ورائى فى الحديث :
ـ هو الشغل عاوز علام فيه شغل عاوز حداقة ٠٠٠ !

ـ ما هو القسم مش راضى يسيبهم يشتغلوا فى الشـــغل اللى عاوزه حداقه ده ؟

وتناثرت الضحكات فى الطابور فصاح جاويش كان موكـلا بحفظ النظام فى طابورنا ٠

ـ ياأستاذ ٠٠ يامحترم انت وهوه بلاش الأصوات دى ٠٠ المكاتب اللى حوالينا دى كلها بتشتغل وعاوزه هدوء !

وللحظات ساد الهدوء طابورنا ثم سرعان ما انفجر مرة أخرى فى تعليقات عامة ٠ كان الطابور الآخر قد بدأ يخرج ٠٠٠ تسوده نفس اللامبالاة ، ويبصر طريقه بعيون شاردة لا تقف نظراتها عند شىء ٠٠٠ كانت ملابس البنات مختلفة الالوان ٠٠ ممـا اضفى على الطابور طابع كرنفال شاحب تعوزه روح المرح ٠٠ وجـدت البنات على القرب نحيفات بشكل ملحوظ كانهن دمى خشبية ممـا يعرض فى واجهات المحال ٠٠٠ كان فيهن جمود الدمية ورتابة حركاتها ولم يكد طابور (البنات) يغادر الفناء حتى التفتت احدى هذه الدمى اصغرهن حجما فلم يكن فى وجههن ما ينبىء عن عمرهن الحقيقى واخرجت لسانها للطابور وحركتها حركات هازئة ٠٠ اثـارت فى الطابور هوجة من الضحك والتعليقات ٠٠٠

ـ مع السلامه ياوش الغراب ... السكة التى تودى .. نشوفك فى التخشيبة .. وكان رد الدمية الصغيرة وهى تكاد تختفى من باب القسم هزة من ارادفها النحيلة دون ان تكلف نفسها عناء التطلع للطابور . وبعد لحظات كانت حمى التعليقات فى الطابور قد بدأت تهدأ وفقد الطابور موضوعه المشترك حين اغلق أحد العساكر باب الحجز معلنا انتهاء العرض ... ومع انه كان من الواضح ان بعض المشاعر الحزينة كانت تند عن الطابور وهو يشاهد هذا العرض الذى لم ينتظره أحد ، الا انه كان من الواضح أيضا ان شعورا شريرا بالاسف بدأ يغمر الطابور كله لأنه فقد شيئا مثيرا انساه تماما تجربته التى لاتخلو من مرارة وضيق .. ربما نم عن هذا الشعور ان معظم الايدى ارتفعت اذ ذاك بالساعات ليتأكد كل واحد من الوقت الذى استغرقه هذا العرض المثير .. !

وعاد الطابور تدريجيا الى نظامه السابق وبرزت مرة أخرى فوضى النصف الأخير واكتشف كل واحد فى الطابور انه تقدم قليلا دون يشعر الى الامام ... ! وأسعد الجميع بلا شك هذا الاكتشاف ، كما زادهم اسى ثقتهم من انهم لن يتقدموا بعد ذلك ـ دون ان يشعروا ـ بمثل هذه الطريقة السحرية ... !

ووجدتنى اشعل سيجارة جديدة اختلس اليها الابله الذى يقف خلفى نظرة وقحة ضايقتنى جدا .. وعدت اقرأ الجريدة ربما لأحتمى بها من نظرات هذا الابله الذى بدأ يحاصرنى منذ انتهى من حديثه مع الواقف خلفه ... ووجدتنى اقرأ أشياء لم أكن اهتم بقراءتها على الاطلاق ... ولم يكن من المعقول ان استمر طويلا فى قراءة مثل هذه الاخبار ، لقد بلغ ضيقى بالجريدة اقصاه . ولم تكن لدى ادنى رغبة فى ان انفرد بنفسى فى مثل هذا الطابور الغريب ... بل ربما كان من الأنسب ان اعترف بأن بذور الرغبة فيه .

فى ان اتكلم مع احد بدأت تنمو فى داخلى بشكل لم يعد فى مقدورى تجاهله ... !

ولكن من هذا هو الأحد ؟ من الصعب ان أسلم نفسى فريسة سهلة لهذا الابله ! اننى مستعد ان اتخلى عن مكانى هذا وأعود قليلا الى الوراء لأتحدث مع شخص معقول ، ولكن ماذا يظن بى هذا الشخص الذى سأدعوه ليحتل مكانى والجميع هنا فى صراع صامت من أجل خطوة الى الامام .. ؟ ان التقدم بهذه الطريقة أمر فظيع .. « ان اظل صامتا بقية هذه الرحلـــة » ... « منفردا والجميع حولى يتحدثون » حتى الشخص الواقف أمامى قد نسى كآبته وتحدث مع زميله الذى يتقدمه ... ! ونظرت الى ساعـة يدى ... كانت تشير الى التاسعة والنصف ... صحيح اننى تقدمت بضع خطوات واصبحت على مقربة من النافذة الأولى ... وحيث يمكننى ان ارتكز عليها قليلا فقد بدأت ساقاى تتصلبان .. وظهرى اشعر به كما لو كنت احمل شيئا فوق كتفى . ولكن حتى هذا الأمل لن يغنينى كثيرا عن تلك الرغبة فى الحديث مع أحد ... ووجدتنى مرة أخرى مندفعا الى تأمل الطابور .. انه لا يتحرك .. بل ربما كانت حركته تشبه حركة الكرة الارضية تتم دون ان يشعر بها أحد . ان تأمل الطابور أمر مسئم حقا وانه لايفترق عن تأمل عقارب الساعة ، انه جدير بأن يجعل من الدقيقـــة الواحدة دهرا بأكمله ... وبدأت أدرك ان الوصول الى الكاتب المختص لم يعد هدفا فى هذه اللحظات وانما الهدف طريقة الوصول .. كيف يمكن ان تنقضى هذه الساعات والباقية بطريقة انسانية ... اننى مستعد ان أرجع قليلا الى الوراء لأجد انسانا يمكن ان اتحدث اليه ولكن هؤلاء الناس لن يتركونى أتصرف بحرية حتى ولو كان فى صالح الشخص الذى سأترك له مكانى ... ان منطق الطـابور اللعين يجعل كل فرد هنا اسير مصيره ... اسير حظه الذى وضعه فى

اختياره ٠٠ انهم لن يحترموا رغبتى فى ان أصل متأخرا بطريقة أفضل ٠٠٠ !

ووجدتنى ابسط الجريدة مرة أخرى بحركة آلية لأقرأ أشياء لا اعيها تماما ، ودفعتنى هذه الطريقة الغريبة فى القراءة لأن أجد نفسى اقرأ دون أن ادرك صفحة الوفيات ٠٠٠ !

شاى ٠٠٠ قهوة ٠٠٠ شاى ٠٠٠ والتفت لأجد رجلا يحمل صينية عليها اكواب الشاى والقهوة يبيع للواقفين فى الطابور ٠ وقبل ان افتح فمى بكلمة واحدة كان الابله الذى يقف خلفى قد تناول كوبا من الشاى وقال لى ـ وكانت عيناه قد التقتا بعينى فى نظرة خاطفة ٠

ـ تشرب شاى يافندى ٠٠٠ أجيب لك شاى ٠

ـ متشكر ٠٠٠ متشكر قوى ! قلتها بخوف ٠٠٠ ووجدتنى اطلب لنفسى كوبا من الشاى ٠٠٠ وحاولت ان أفهم شعورى حيال هذا الرجل ٠٠ كنت فى الواقع مستعدا ان اتكلم معه ٠ بل مع اى شخص ولكن شعورى منذ البداية بأنه هو الذى يود ان يفرض هذا الكلام وان يبدأه ضايقنى جدا ، ولكن هأنذا الآن اسقط ثمرة ناضجة فى يد هذا الابله ٠٠

وأخرجت علبة سجائر وأعطيته واحدة وأشعلت لنفسى أخرى ٠ وأنا ابادله نظرات حذرة ٠٠٠٠ كان شكله فى الواقع يوحى بأنه يمكن ان يفعل أى شىء ٠٠ شكل مجنون ٠٠ !

ولم أجرؤ على ان ابدأه بالحديث ولكنه اندفع دون مقدمات وبعد ان انتهى مباشرة من شكرى على السيجارة ٠٠٠

ـ شوف يافندى ٠٠ المرأة زى السيجارة بعد ما تأخذ منها مزاجك تدوسها ، تمام زى ما بتدوس السيجارة ٠٠٠

ووجدتنى أقول له موافقا ولازال خوف عجيب يسيطر على نفسى ٠

ـ طبعا يا معلم ٠٠٠ هو كده فعلا ٠٠٠ وتابع الرجل دون ان ينتبه لما قلت ٠

ـ شوف يا فندى أنا أجوزت خمس مـــرات ولما ازهق من الواحدة أجوز غيرها وأطلقها ٠٠٠ كان الابله ٠ يتكلم بســـرعة عجيبة ٠

ووجدتنى استجمع شجاعتى وربما غيظى لاقول له :

ـ لكن تطلقها ازاى يامعلم ٠٠٠ دى يمكنها تشتكيك للمحكمة وتاخذ منك نفقة ومؤخر ٠٠

ولأول مرة بدت من عينى الرجل نظرة احسست منها أنـه يعتقد اننى انسان غاية فى البلاهة وتابع هو يضحك بصوت منفر ٠

ـ تدفعنى ايه !!! ايش تاخد الريح من البلاط ٠٠٠ انا راجل باعيش يوم بيوم ايه اللى تقدر تاخده منى ٠٠ ؟ أنا كل شـــهر أو شهرين باجدد البطاقة لأنى كل كام شهر فى حته ٠ لازم الواحـد يجرى ورا رزقه ٠ أنا باشتغل فى كل الصنايع اللى فى الدنيا : طباخ ٠ واصلح حنفيات وبوابير ومساح جزم ، وفى كل صنعه فى اى بلد اعرف آكل عيش ٠ وحياتك أنا لى ولاد ما شفتهم من خمس سنين ولا أعرف هم فين دلوقت المره من دول تبقى بتشتغل زى الماكنه وساعة ماأجوزها عاوزه تقعد تستريح على‌قفاى٠لكن لما اطلقها حترجع تشتغل تانى زى ماكانت علشان تربى ولادها طبعا ٠٠ حاكم النسوان زى الدودة عاوزين واحد يلزقوا فيه علشان يمصو دمه ، لكن محسوبك مش كده ٠٠٠

وكانت الطريقة اللى يتكلم بها الابله تملؤنى رعبا ، ولم يكن يترك لى اية فرصة لاوجه اليه أى كلام ، وحين رفع كوب الشاى الذى كان فى يده ليجرع كل ما تبقى فيه دفعة واحدة انتهزت هذه الفرصة لاقول له ٠

ـ ودلوقت انت معاك ستات ولا مطلق ؟

ـ وأنا دلوقت مرتاح خالص ٠٠٠ عايش مع أمى ٠٠٠ أمى دى ٠٠ وقبل ان يتم الابله حديثه عن امه سرت فى الطابور همهمة حادة وارتفع صوت الافندية الذين كانوا فى الطابور بهذه الكلمات ٠٠٠

ـ ايه ده ٠٠٠ لازم تكون فيه مساواة ٠٠٠ ليه مايجوش الستات دول يعملوا طابور زينا ، ازاى يدخلو يخلصوا شغلهم على طول واحنا نقف هنا طول النهار ٠٠ مافيش فرق دلوقت بين الراجل والست ٠٠

والواقع انه منذ بدأ الطابور ودخول اية سيدة لتجديد البطاقة يثير همهمة خافتة فى الطابور ، ولكن الأمر لم يصل الى حد ان يتطوع أحد الافندية بهذه الخطبة الا الآن فقط ٠ ان تتابع السيدات هذه المرة هو الذى أحدث هذا الانفجار ، فمعناه تجميد حركة الطابور نصف ساعة على الأقل ٠٠٠

ورد الجاويش الذى كان موكلا بحفظ النظام بصوت حانق ٠

ـ جرى ايه يافندى انت وهوه مافيش فرق ازاى ٠٠ الراجل راجل والست ست ٠ انتم عاوزين الستات ييجوا ينحشروا فى وسطكم ٠٠ ايه الكلام الفارغ ده ٠٠ !

وتوقعت بطبيعة الحال ان يكون للأبله رأى فى هذه المشكلة ٠٠ اذ لم اكد انظر اليه حتى ابتدرنى قائلا وفى عينيه بريق مخيف ٠

ـ ايه رأيك فى الست اللى كانت ماشيه قدام ٠٠ حلوه ٠٠ حلوه قوى ٠٠ ترضى تجوزنى ٠ ؟

ووجدتنى اجيبه بحذر :

ـ والله مش عارف ٠

ـ يظهر انك ماتعرفش الستات كويس ٠ اى ست تحب تجوز أى راجل ٠٠ الراجل راجل مهما كان ، سيبك من حكاية الهدوم والشكل ٠ المهم فى الراجل انه يكون راجل ٠

وشعرت برغبة عنيفة فى ان اصفع هذا الرجل على وجهه ولكن نظرة هادئة الى جثته الضخمة ردتنى الى صوابى ووجدتنى أقول له بلا تفكير :

ـ فعلا ٠ المهم فى الراجل انه يكون راجل ٠ وانت فعلا راجل ولا كل الرجالة ٠٠٠

ولأول مرة ابتسم الرجل بسمة عريضة اظهرته أكثر بلاهة مما كان ، وبدت اسنانه الصفراء متناثرة فى فمه الواسع ، وأصبح انفه عريضا جدا وخداه ممتلئين بالتجاعيد ٠ وقال بلهجة سرور وانتصار ٠

ـ تعرف يا فندى انك ناصح ٠٠ أنا فى واحدة ست قالت لى الكلام بتاع حضرتك تمام حاكم برضه أولاد اللعينة دول الواحد ما يستغنيش عنهم ٠ برضه الواحد لازم يقع تانى ما فيش فايده ٠ حاكم الواحد دائما يسعى لوجع دماغه بايده ٠

وشعرت بضيق هائل ولم افكر طبعا فى مجرد رد الاهانة ، لقد وجدتنى عاجزا حتى عن ان أتخلص من دورى كمستمع لهذا الرفيق الذى فرضته مصادفة سخيفة ٠ لم يكن من السهل ان اترك مكانى ٠ وخطرت لى فكرة ان اغادر الطابور لاريح قدمى قبالة

مكانى بالجلوس على حافة الممشى وبذلك اتخلص لحظات من هذا اللعين ·· وطلبت منه بلهجة رقيقة كما طلبت من العامل الذى كان يقف امامى ان يحافظا على مكانى حتى اريح قدمى قليلا بالجلوس ·· وبهذه الطريقة وقع العامل الذى كان يقف أمامى بقميصه المفتوح وبنطلونه القصير فى براثن هذا الابله ، والعجيب انه استمر فى الحديث كما لو أن شيئا لم يتغير ، والاعجب اننى وجدت نفسى وأنا أجلس قبالتهما مهتما بمتابعة حديثهما ···

لقد ابتدر الابله العامل بهذا السؤال :

ـ بتشتغل فى ايه ؟

ـ أنا بدور على شغل ··

ـ الشغل مالى الدنيا ·· انت لازم عبيط ··· ! فأجاب العامل ·

ـ مش فى البلد دى · انت تقدر فى اى بلد تانيه · فى اسكندرية فى طنطا · أى بلد · لكن مصر دى بلد العيشه فيها صعب قوى ·

ـ وايه اللى جابك هنا ؟

ـ نصيبى ···

فرد الابله :

ـ أنا أعيش فى أى بلد · النبيه يعيش فى أى بلد · الخايب اللى زيك هو اللى يحتار ·

فأجاب العامل وهو يحدق فى عينى الابله ·

ـ انت تقدر بخمسه جنيه تفتح اى كشك فى اى بلد · انما

مصر الخمسة جنيه فيها ما يسووش خمسه مليم ، وكمان تجيب منين فيها خمسة جنيه ؟

ـ شوف اسمع يا واد · مصر ما يعيش فيها الا الحدق · تقدر تكسب دهب فى مصر من غير ما تتعب بس بشرط انك تكون واد نبيه ·

ـ ازاى ؟

ـ تقدر تشتغل مرسال بتاع صنف ·

ـ بس دى ياعم اللى بيقع فيها ما يقمش ···

ـ الحدق مايقعش ·

ـ الجمل بيقع ·

ـ الجمل بيقع لأنه مش حدق ··· ؟

وانقطع الحوار فجأة كما تلاشت كل الاصوات التى تصدر عن الطابور حين ارتفع صوت الجاويش يطلب من الخارجين على الطابور ان ينضموا اليه · فكاتب البطاقات سوف يمر بهم ليتفقد الأوراق التى معهم ويخرج من معهم أوراق ناقصة ليستكملوها حيث انهم يضيعون وقته ووقت بقية الطابور ··· واخذت مكانى مرة ثانية فى الطابور وفى نفس اللحظة كان طابور الجالسين على حافة الممشى قد تلاشى تماما فى الطابور الأم · وامتدت الايدى بالأوراق يتفحصها الكاتب المختص فى سرعة ، وتابع الكاتب سيره والطابور يتقلص شيئا فشيئا · وشملت حركة التطهير هذه العامل الذى كان يقف امامى والابله ووجدتنى فجأة محاطا برفاق جدد ·· واحدثت هذه الحركة تغييرا ضخما فى أماكن الوقوف فأخرجت أناسا كانوا على مقربة من الباب ، ودفعت آخرين خطوات الى

الامام · أما أنا فقد وجدت نفسى قبالة النافذة الأولى وأصبح بمقدورى ان اشهد الحجرة السحرية ··· حجرة كاتب البطاقات · والعجيب ان فرحتى بهذا التقدم الطارىء قد خالطها شعور غريب بالأسف لمفارقة هذا الابله · لقد سلم على وهو يغادر الطابور · ومشى يتحدث مع العامل دون ان يبدو عليه اى ضيق لما حدث ··· كانت ملامحه وكأنها غير صالحة لأن تعكس أى انفعال بالضيق أو الألم !

ووجدت نفسى اكتسب سلوك الواقفين فى بداية الطابور دون قصد ، فقد طلبت من الخارجين قليلا عن الطابور ان يأخذوا مكانهم ، ربما لأتمكن من ان أعد بقية الواقفين ·· ووجدت نفسى لأول مرة اهتم بالاوراق التى معى فأرتبها حسب طلبها الاولى فالثانية فالثالثة ··· ووجدتنى مدفوعا أيضا الى التفرج على حجرة كاتب البطاقات الذى لم يكد يعود ليحتل مكانه أمام منضدة صغيرة ، حتى وجدتنى مدفوعا لتأمله بشغف غريب · كان يعمل بطريقة لم اتصور ان يعمل بها آدمى ، كان يملأ الأوراق التى أمامه دون ان يرفع رأسه لحظة واحدة ·· ومتى احتاج الأمر الى أن يستفسر عن بعض البيانات الخاصة من صاحب البطاقة ، فأنه كان يفعل ذلك دون ان يرفع رأسه ·· يسأل الواقف أمامه سؤالا أو أكثر وهو مكب على الأوراق ·· يداه فقط هما اللتان تتوقفان ، وحين تعود يداه للكتابة اعرف ان صاحب البطاقة قد اجابه الى مايريد · كان الطابور يتحول الى مجرد اسماء ·· اسماء اشخاص واسماء شوارع واسماء مؤسسات واعمار ·· ومهن يسجلها دون ان يجد فى نفسه أدنى رغبة فى ان يشاهد وجوه أصحابها · وبين حين وآخر ·· كان يرفع رأسه فجأة ·· ويرجع بظهره الى الوراء ويغمض عينيه ويستمر هكذا لحظات دون ان يعبأ بالشخص

الذى امامه ثم يعود ليكتب ٠٠ ليملأ الخانات باسماء الاشخاص وأسماء الشوارع ٠٠ !

وبرغم اننى كنت فى هذه اللحظات قد بدأت اشعر بتصلب فى ساقى نتيجة اعتمادى بمرفقى على حافة النافذة ، فأننى قد شعرت بأننى ارفض بشدة ان أجلس مكان هذا الرجل لأعمل بطريقته تلك مثل هذا العدد من الساعات التى وقفتها ٠٠ !

ولم يعد بمقدورى ان اواصل التفرج على هذا الرجل ٠٠ ان الرفيق الجديد الذى يتقدمنى فى الطابور شيخ قد تجاوز الخمسين تقريبا يختفى رأسه تحت عمامة ضخمة وتهز اصابعه حبات مسبحة صغيرة ، ويتمتم بصلوات وادعية يبدو انها تشغله تماما عن تلك الرحلة العجيبة التى جمعتنا معا ٠٠ وكان واضحا انه ليست لديه اية رغبة فى التكلم مع أحد ٠ واكتشفت فى تلك اللحظة ان رفقة الابله كانت افضل جدا من رفقة هذا الشيخ الذى يبدو مستغنيا بادعيته وصلواته عن كل انسان ٠٠ كنت فى حاجة الى ان أتكلم مع أحد ٠٠ كيف يستمع هذا الواقف أمامى بترديد مثل هذه الادعية ؟ ان الرفيق الخلفى منهمك فى حديث مع الواقف وراءه ، يبدو انهما صديقان ٠٠ وهذا من سوء حظى وبدأت أعد الاشخاص الذين أمامى مرة أخرى ، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ٠٠ ربما أصل الى الكاتب قبل الثانية بقليل ٠٠ الشخص الواقف أمام الباب لايزال كما هو ٠٠ لا زلت ابصر من مكانى شعره الأصفر وذراعى منظاره يلمعان خلف اذنيه ٠٠ أمام الكاتب سيدتان أوقفتا حركة الطابور ٠٠ انه لايزال يعمل دون ان يرفع رأسه ٠٠ ودون ان ينتبه الى ان أمامه سيدتين صغراهما غاية فى الجمال ٠٠ وضقت بنفسى وبالطابور وبالسيدتين وبالرجل الذى يعمل كآلة ٠٠ وبهذا الشيخ الذى يبدو انه جاء خصيصا ليتفرغ للعبادة ٠٠ وبدأت

اكتشف فى نهاية الأمر ان جريدة الاخبار لا تزال معى ·· وعدت أقلب الجريدة كسجين يطالع مذكراته التى لايســـمح له بقراءة غيرها ·· !

الشيخ الذى أمامى لايزال يقرأ ·· يبدو انه ليس لديه اى استعداد لأن يتحدث مع أى كائن بشرى آه اين انت ياصديقى · الابله ؟ ان الانسان لايدرك احيانا قيمة من يتحـــدث اليه ·· أى شخص ، اى حديث ولو كان هذيانا ·· ! لا شـــك ان الحيوانات كائنات تعسة للغاية لأنها لا تستطيع ان تثرثر ! اننى اشك فى ان يكون هذا الواقف امامى كائنا بشريا ·· متى ينتهى هذا الطابور اللعين ؟ وحانت منى التفاتة الى داخل الحجرة خلال النافذة التى بدأت اتجاوزها قليلا ·· كاتب البطاقات لايزال يعمل بنفس الطريقة ·· يداه تتحركان ·· وعيناه مثبتتان فـوق الأوراق ·· وشفتاه يا الهى ·· لقد بدأت الاحظ هذه المرة انهما منطبقتان تماما ·· انه لايتكلم هو الآخر ·· وعجزت عن ان انتزع عينى عنـــه ، وحتى حين ابعدتنى حركة الطابور البطيئة عن المكان الذى ابصره منه ·· كنت لازال اراه خلال الحائط الصخرى الذى يحـــول بينى وبينه ·· انه يعمل والطابور يدفعه ابـــدا الى العمل كأنه عجلة يديرها سير ماكينة فى حركة دائبة · سير لا بداية له ولا نهاية ·· ان الساعة فقط هى التى تحدد نهايته · عندما يشير العقرب الى الثانية يسقط سير الماكينة فتكف العجلة عن الحركة ، وعندما يشير العقرب الى الخامسة مساء تبدأ العجلة فى الدوران ·· كم الساعة الآن · ؟ ان العقرب يقترب من الساعة الثانية فى سرعة غريبة ·· فى هذه اللحظة بدأ العقرب اللعين يبدو وكأنه مسرع جدا ·· ومن الجائز ان يختار العقرب اللحظة التى اقف فيها أمام الكاتب ليقف فيها هو الآخر امام الرقم ـ ٢ ـ واذ ذاك يرفع صديقنا رأسه المثقل ، ولأول مرة يكون لى شرف ان ابصر عينيه المرهقتين ويقول لى وهو

يضم أوراقه ·· ايها السيد تعـــالى غـدا ·· ! ولكن لا ·· من المستحيل ان يفعل ذلك ·· انه لاشك مـدرك كـــم انا متعب ، ان الوقوف فى الطابور كل هذه الساعات أمر قاتل ·· وحضورى غدا لأكرر هذه المهزلة أمر مستحيل ! ثم لا شك انه يعرف كـــم كنت مشفقا عليه ·· ربما كنت الوحيد الذى تمزق قلبى من أجله ! ولقد كان البعض يتهمونه بالبطء ويقولون لو انه أســـرع قليلا ·· ! ولكنى يشهد الله لم أفعل ذلك ابدا ·· ! يجب عليه على الأقل ان يتم بطاقتى ·· وحانت منى التفاتـة الى الواقف خلفـــى فى ذات اللحظة ·· كان وجهه هو الآخر ينطق بالارهـــاق · لو ان كاتب البطاقات استمع لكل واحد حقا لما انتهى أمره ·· ان خلفى لاتزال عشرات الوجوه المرهقة ·· ياله من يوم ·· اشعر اننى فى سباق مع العقرب اللعين ·· الشيخ يقترب من كاتب البطاقات ·· لقد كف فى تلك اللحظة عن القراءة انه يجيب على أسئلة الكـاتب بهدوء عجيب ·· أن هذا الرجل لايشعر ابدا بخطوات العقرب الزاحفة الى الامام لتقطع هذا الطابور ·· هذا الحبل البشـــرى فى ذات النقطة التى أوقف فيها ·· آه ايها الحظ ·· لقد فعلتها ·· فهأنذا اقف امام الكاتب فى الوقت الذى تشير فيه عقارب الساعة الضخمة المعلقة فى حائط الحجرة الى تمام الثانية ·· مؤذنة باسقاط السير اللعين ··· وهاهو ذا الكاتب يرفع رأســه ويرجـــع بظهره الى الوراء · ولكنه دون ان يفتح عينيه لحظة واحدة ودون ان يبصر عقارب الساعة ، عاد يعمل مشيرا الى أول شخص ليتقـــدم ·· يا الهى ·· لقد سقط السير ولكن العجلة لاتزال تدور ··· !

مملكة نبيل

كانت الدراجة تنزلق على الطريق الزراعى الطويل الذى يغادر المدينة فى انحدار خفيف ليمضى متعرجا بين الحقول مارا بالقرى الكثيرة التى تمتد على جانبه .

وكان الوقت صباحا ، وضوء الشمس هادىء رفيق ينعكس فوق قطرات الندى التى تبلل وجه الأرض ووجه الزرع ، ولكن الضوء فى هذه الفترة المبكرة من النهار لا يستطيع ان يمتص كل هذه القطرات فتبدو وكأنها عشرات العيون تنبض بالحياة ومياه الترعة المجاورة للطريق الزراعى ينعقد فوقها ضباب كثيف يغطى حتى الطريق ، الشىء الذى يجعل نبيل يفتح عينيه جيدا وهو يشق الضباب بدراجته فوق الطريق الزراعى حتى لا يصطدم بهذه العربات الخشبية التى يلحقها فى كل لحظة وهى فى طريقها الى الحقول وخلفها الاطفال الصغار يسوقون البهائم بينما يحتل الأب

مكان السائق فى العربة التى يجرها فى الغالب حمار تخصص فى اداء هذه المهمة ٠

كان نبيل يعرف كل هذه الأشياء عن هذا الطريق ، فلم تكن تلك هى المرة الأولى التى يقطعه فيها بدراجته وان كان الزمن الذى يفصل بينه وبين الأخيرة يبدو بعيدا ، كأنه شـــهور ٠ لا يمكن ان يكون شهرا واحدا ذلك الذى قضاه فى العمل بمتجر الحاج رمضان بالسنبلاوين ٠ لقد حاسبه الرجل على اجرة شهر كامل بالمليم واخذ لأول مرة مبلغا لم يأخذه فى حياته ٠ خمسة جنيهات ورقة واحدة ، لكان شكل الورقة جميلا ورائعا ، كانت تحدث صوتا خاصا حين يضغطها بين اصابعه ٠ وعجب ان تكون بهذه الصلابة ، كان يخيل اليه انه لايمكن ان تتمزق حتى ولو حاول هو ذلك ، ولأول مرة ادرك فيها اشياء كثيرة لم يكن يراها من قبل ٠٠ ألوانا ٠٠ دقيقة ورسوما معقدة ٠٠ كانت تلك أول مرة تبقى فيها ورقة تحمل هذا الرقم فى يده كل هذه المدة ٠٠ كانت له وحده ٠ وجرى لامه واعطاها الورقة ٠٠ فتلقفتها بفرح ٠٠ لقد استخفها الفرح ٠٠ سقطت طرحتهـــا السوداء وهى تهم بتقبيل والدها فبدا شعرها الأبيض ٠ واضاءت وجهها بسمة عريضة ٠٠ المختصرت من عمرها عشر سنوات على الأقل ٠

ـ « انت بقيت ابنى صحيح ٠٠ ربنـــا يحرســـك ويحميك لشبابك » ٠

ومع ذلك فقد قال لها نبيل وهو يمسح بيده على رأسه ويعيد ترتيب هندامه ـ (اسمعى يا أمى أنا خلاص من بكره مش حاشتغل عند الحاج رمضان أنا راجع تانى لشغلة الجرايد) وفجأة تغيرت ملامح الأم وكادت ان تصرخ وهى تقول « ليه يابنى حرام عليك

.. انت بتاخذ ايه من الجرايد .. تلاتة جنيه ياحسرة يعملوا ايه ولا ايه » .

ولم يرد نبيل وقتها على امه . كان يدرك ان مايدور بخاطره لايمكن ان تهتم به امه فى قليل أو كثير لأن أمه لا يهمها سوى الفلوس . الفلوس هى كل شىء عند امه ـ « أنت يابنى لسه صغير ماتعرفش حاجة فى الدنيا . يا ابنى انت من غير المليم لاتساوى مليم » وأمه هى التى سعت له عند الحاج رمضان ليشتغل فى متجره الكبير ليزيد أجره جنيهين فى الشهر وذهب الى متجر الحاج رمضان ارضاء لأمه . وادرك بعد مرور اسبوعين من العمل بالمتجر انه ليس بمقدوره ان يفعل أى شىء لأرضاء أمه .. انه يعمل طوال النهار كالمكوك .. يتحرك دائما فى مساحة من الأرض لا تزيد عن ثلاثة امتار هى القسم المخصص له . يد تمتد الى أحد الرفوف . وأخرى تمسح الغبار عن البضائع المعفرة وبسمة معلقة على الفم .. وكلمات لاتكاد تتغير كثيرا « ايوه .. حاضر . كلمة واحدة .. عندنا والله الثمن واحد .. دا صنف ممتاز .. احنا بنكرم فى الصنف . لسه مجاش » . ووجوه عديدة تتوافد على الدكان الكبير من انحاء المدينة وتجار القرى المجاورة . ووجوه تتغير كل دقيقة فلا تكاد تميز ما بينها من فروق ، وجميع العيون يطل منها شك فى قيمة السعر ومعظمهم يقسم انه رأى الصنف نفسه بسعر أقل فى محل آخر وانه جاء الى هنا لأنه زبون قديم ورائحة الصابون والزيت والفلفل . واصوات الورق وهو يتحول الى قراطيس . والصنجات وهى تصطك بكافة الموازين . والحاج رمضان قابع خلف مكتبه الجانبى وعيناه خلف المنظار الطبى تمسحان الدكان بنظرات فاحصة بين لحظة واخرى ولون جلبابه الصوفى الأزرق وطربوشه وخداه المتوردان ـ كل ذلك أصبح جزءا من معالم الدكان كنتيجة الحائط التى لا تتغير الا كل عام والموضوعة

خلف الحاج رمضان وكالساعة الكبيرة التى تلتقى بها عينا الحاج رمضان فى أوقات الصلاة وعيون العمال فى أوقات غلق الدكان ٠ وكالقطة التى تطهر الدكان من الفيران وتصطدم بها أقدام الباعة التى لا تكف عن الحركة ٠٠ وجدران الدكـــان ذات اللون البنى الداكن تحجب عن عينيه لون السماء ورائحة الهواء الطلق والنهار يطول جدا ٠ والايام تبطىء ٠ ولم يكد نبيل يقرأ فى نتيجة الحائط ان اليوم هو الواحد والثلاثون من شهر اغسطس حتى ترك المتجر الى غير رجعة وألقى لأمه بالورقة ذات الخمسة جنيهات واخبرها انه لن يعود الى هذه « الشغلانة » ٠

***

وفتح نبيل عينيه بشدة ليتأكد انه ترك دكان الحاج رمضان الى غير رجعة ٠ وان الجدران الغامقة لم تعد هى مايبصره فى كل وقت واستراح نبيل حين وجد ان نظراته تمتد فى كل اتجاه دون ان يعوقها شىء ٠ وعربدت فى صدره اغنية سرعان ما انطلقت من شفتيه همهمة خافتة ٠٠ « احب عيشة الحرية ٠٠ زى الطيور بين الاغصان » ٠٠ لم يكن ما يردده كلمات ، كان فقط نغما استعان فى تلحينه بجرس الدراجة الذى كان كثيرا ما يوقع عليـــه لا من أجل تنبيه المارة بل من أجل تلحين اغانيه حينا والاعلان عن مقدمة احيانا كثيرة ٠٠ منذ شهر لم يسمع أحد توقيع جرس نبيل ٠ ترى ماذا قال الناس عنه ؟ مات ؟ سافر بعيدا ؟ سيعرف اليوم كل شىء سيقرأ فى وجوههم معنى ان يختفى من حياتهم شهرا كاملا ! !

وحبس نبيل فى صدره نفسا طويلا من الهواء النقى ٠ وكأنما اطلقه فى ساقيه فاندفعت الدراجة باقصـــى ســـرعتها تمرق من العربات التى تكركر فى بطء ٠ وبعض الكلاب حاول ان يلحق نبيل ٠٠ وحمل صبى صغير ـ كان نبيل يمرق من جانبه كالسهم ـ حفنة

تراب رماها خلفه وشتمه صبى آخر · وابتسم نبيل ابتسامة عريضة وهو يحاول ان يتجنب بدراجته بعض العجول الصغيرة التى افزعها صوت الجرس ··

وشيئا فشيئا بدأ الضباب ينقشع وحرارة الشمس تمتص القطرات التى كانت تلمع فوق أوراق الشجر والاعشاب الممتدة بجوار الترعة ·· والقرى التى كان يحجبها الضباب بدت هى الأخرى تجتذب عينيه ·· وتذكر أول رحلة فى هذا الطريق منذ عام تقريبا ·· كان يجهل كل شىء عن الطريق · كان يعرف فقط اسماء البلاد التى سيمر بها لبيع الجرائد · لقد ذكرها له متعهد الصحف مرة واحدة وكأنما كان عليه ان يحفظها لأول مرة · عزبة موافى · الحصاينة · ديو ·· كفر الأمير ·· ونسيها بعد دقائق وحاول فى الطريق ان يتذكرها فلم يذكر سوى اسم بلدة واحدة فقط وسأل صبيا عن اسم أول بلدة مر بها وضحك منه الصبى لأنه لا يعرف ذلك وضحك معه جميع الأولاد وخجل نبيل ولكن خجله سرعان ما تبدد عندما عرف ان الجميع سوف يضحكون عليه طويلا لو جهل اى شىء فى حياتهم ·

كانت حياتهم فى البداية حياة كل الناس فى كل هذه القرى ـ تبدو متشابهة الى حد كبير كأنها حياة واحدة كبيرة ·· اسماء الناس ·· ملابسهم ·· سحناتهم · الكلمات التى تلتقطها اذناه اثناء السير · بيوتهم · الشوارع المتعرجة تكتنفها أكوام السباخ التى تنقر فيها الطيور ويلهو بترابها الأطفال ·· الدكاكين القليلة المتناثرة يجلس امامها أناس ذوو ملابس بيضاء احيانا · كان يظنهم فقط زبائنه الوحيدين ·· فى أول أسبوع عرف أناسا كثيرين اسمهم محمد وعرف دورا كثيرا من تلك تمتد امامها مصطبة ويجلس فوقها الناس فى أوقات فراغهم ·· وعرف عدة دكاكين ··

ولكنه كان فى حاجة الى أسابيع كثيرة ليفرق بين محمد افندى المدرس والشيخ محمد عامل التلفون والأسطى محمد الخياط ومحمدين الخفير وليفرق بين مصطبة الحاج مصطفى الذى اصبح من اعز اصدقائه وبين المصاطب الأخرى التى قد لا يطيل عندها الوقوف كثيرا وبين دكان فتوح الذى أصبح يركن عنده حزمة من الجرائد ليبيع منها فتوح طوال النهار الى ان يعود من جولته فى القرى المجاورة وبين غيره من الدكاكين .. المهم ان نبيل كان فى حاجة فعلا الى هذه الأسابيع ليس فقط ليعرف الكثير عن حياة الناس فى هذه القرى بل ليعرفه الناس كذلك . فالحياة فى هذه القرى تكره ان يكون هناك شىء غير مألوف . انها تكره الغرابة وتمتص كل جديد وتحيله الى شىء عادى . وهكذا تعود نبيل خلال اللحظات القليلة التى كان يقفها كل يوم مع زبائنه امام مصطبة الحاج مصطفى أو امام دكان فتوح ان يجيب على عشرات الأسئلة عن امه وأبيه . وماذا كان يفعل قبل ان يشتغل بالجرائد ؟ وهكذا اصبح تاريخ نبيل شيئا مألوفا يعرفه الاطفال فى القرية ولم تعد العيون تتأمل طويلا ملابسه ودراجته والكاسكيت البنى الذى يضعه على رأسه ويرجعه قليلا الى الوراء ليظهر شعره الطويل الناعم منسدلا على جبينه وكان الاطفال ينادونه بأسمه متبوعا باسم أمه ما دام والده قد مات .

واطلقوا على دراجته اسماء عديدة آخرها « كارتة نبيل » واصبح بمقدور النسوة والرجال الذين لا يملكون ساعات ان يعرفوا الوقت عندما يسمعون صوت جرس نبيل فقد كان يذهب الى كل بلد ويغدره فى مواعيد لا تتغير . وشعر نبيل بكل ذلك بارتياح عميق : لقد اصبح بعد قرابة شهرين شيئا هاما فى حياة كل هؤلاء الناس . واصبح لا يجد مانعا من ان يستجيب احيانا لرغبات بعض زبائنه فى ان يجلس قليلا ليشرب معهم الشاى . أو يتناول الافطار وليقرأ

للبعض اسعار الذهب أو اسعار القطن · كان يحس ان هناك فرقا ما بين الناس فى المدينة التى يأتى منها كل يوم وبين الناس فى هذه القرى · فهو لايشعر بادنى حرج وهو يأكل معهم ، انهم يحدثونه فى اخص شؤونهم ويسألونه عن اخص شؤونه انهم يمنحونه ثقتهم فى سهولة فقد كان الحاج مصطفى الذى تضم مصطبته أكابر الناس فى القرية يرسل معه نقودا الى ابنه حسين الذى يتعلم فى السنبلاوين حيث يعيش نبيل مع امه · وكان لايفتأ يتحدث مع نبيل عن حسين وكيف انه « ولد جدع ونبيه بس يا خسارة بيلعب · اللعب فى دمه وعلشان كده ما بيرضاش يبعتله فلوس كتير لأن الفلوس هى اللى بتخسر الأولاد » ·

واصبح يثق فى نبيل فى كل ما يقوله عن ابنه الذى يراه فى كل يوم بعد عودته الى المدينة حتى زوجة الحاج مصطفى « الست أم حسين » التى لم يكن يراها أو يتحدث اليها الا من خلال الباب الموارب · اصبحت تستقبل نبيل داخل البيت لترسل معه خفية الى ابنها بعض النقود التى تجمعها من بيع البيض والدجاج · وكانت غالبا ما تدس فى يد نبيل ـ بعد ان تعطيه النقود لولدها ـ رغيفا ساخنا وبداخله قطعة من الجبن تكون افطاره فى الطريق الطويل وهى تقول له « خد يا نبيل افطر بدول أهو انت زى ابنى وبتقوم بدرى من غير فطار : خد يابنى خد » ·

فى البداية كان نبيل يتردد ولكنه سرعان ما احس بانه مثل ابنها حقا · ولم يعد يجد فى الأمر ما يخجله · انه يحمل اليها اخبار ولدها · وكلماته · وسائر طلباته · ويلحظها وهى تكاد تلتقط بكل جوارحها كل كلمة يقولها عن حسين فيسره هذا الاهتمام الذى تغمره به بل انها كثيرا ما تأخذ رأيه فى المشكلات التى تعرض لابنها وتعتمد عليه فى اقناع ابنها بما تريد ·· !

وهكذا كان كل يوم يمضى يشعر معه ان حياته اصـــبحت جزءا من حياة الناس فى كل هذه البلاد التى يبيع فيها الجرائد ٠ ترى هل شعر الناس خلال هذا الشهر الماضى كما شعر هو بأنه قد فقد جزءا كبيرا من حياته ؟ لا يدرى ٠٠ ولكنه سيدرى على كل حال بعد قليل ٠٠ سيجد الحاج مصطفى جالسا امام مصطبته ٠٠ وطاب له ان يتخيل وجهه الأسمر يشرق بالدهشـــة تحت عمامته البيضاء وهو يسأله عن سر غيبته الطويلة ٠ سوف يقص عليـه حكاية العمل عند الحاج رمضان كاملة « هى الحكاية حكاية فلوس ٠٠ لا ابدا الواحد عاوز شغلة يحس فيها انه بنى آدم مش مكوك عمال طول النهار يتحرك فى مترين زى دراع المكنة حتى الزبائن كلهم زى بعضهم مابيتغيرش فى بقهم غير اسم الصنف ٠٠ والمصيبة كلها الحاج رمضان أنا والله ما أرضى أفضل محطوط زيه كده طول النهار على الكرسى ما انطقش بكلمة غير هات ياواد حط ياواد وهات ياعد فلوس ٠ طظ فى الفلوس ٠٠ هى الدنيا دنيا فلوس ٠٠ الدنيا ان الواحد يعرف ناس يحبوه ويحس انهم عاوزين يشوفوه أنا فى الشغلانة دى أحسن من الملك ٠٠ ايه يعنى الملك كل البـلاد دى المملكة بتاعتى ٠٠ الناس كلها تعرف نبيل وتحبه ياسلام يا ابو الانبال ٠٠ ! دلوقتى لما تروح « كفر الأمير » وتفوت كمان على بيت ست ثريا وتضرب الجرس ادام البيت ٠ » يفتح اخوها الصغير منير ثم تظهر ثريا خلف الباب بفســـتانها اللبنى ولا شك ان أول كلمة ستقولها وفى عينيها الجميلتين نظرة ممزوجة بالدهشة ؟

ـ ياخبر يانبيل ٠٠ ؟ اين كنت يامضروب ؟

ودون ان يجيب على سؤالها يتقدم اليها بحزمة المجلات التى معه لتقلب فيها تختار ما تريد ٠ وبينما تكون هى سارحة فى تقليب المجلات تكون تلك فرصته النادرة ليتأمل عنقها الأبيض الناعم وقد مال قليلا الى الامام وشعرها المهدل يحجب عن عينيه نصف وجهها

تماما فلا يبصر الا ذلك البياض الناصع يتدلى مع عنقها المائـــل ويهتز كلما رفعت رأسها قليلا وهى تدفع اليه بهذه المجلة أو تلك ـ « لا يا نبيل مش عاوزه المجلة دى النهاردة ده » وحين يقع اختيارها على احدى المجلات التى تقلبها تعبر ملامحها الوديعـــة عن هذا الاختيار فى نظـرة يعرفها نبيل تماما ويفهم منها اكثر ما اذا كانت ستدفع اليه ثمن المجلة أم تؤجله الى الغد ٠

وتذكر نبيل انه يحمل معه هذه المرة مجموعة من المجـلات التى تفضلها « ثريا » ٠

سوف تقف امامها طويلا لتختار مايعجبها وسوف تقطـــع تقليبها فى المجلات لتسأله عن سر غيبته ٠ سوف تكتئب ملامحها حين يقول لها انه كان طوال الشهر كالسجين ٠٠ وسوف ترتفع شفتها العليا قليلا وتضيق عيناها الوديعتان وترتفع يدها بلا شعور لتلامس اسفل خدها الناعم وهى تستمع اليه فهذا ما تفعله « ثريا » دائما حين تستمع الى شىء مؤلم ٠

وحين يقول لها انه كان يذكرها دائما وهو فى سجن الحـاج رمضان ٠٠ سوف تبتسم ويستعيد وجهها صفاءه وسعادته وتنزل يدها بلا شعور لتضرب الهواء فى حركة عفوية كأنها تسكته بهـا وتعود تقلب المجلات ٠

كان نبيل قد بدأ يقترب من قرية « الحصاينة » ٠٠ اشـجار الكافور التى تحيط بمدخل القرية تقترب ، الكوبرى الذى يصـــل القرية بالطريق الزراعى ويعبر الترعة الواسعة تبدو عيونه والماء يتدفق خلالها فى هدير لا ينقطع لحظة واحـــدة ٠ بعض العمـال الزراعيين يلوحون لنبيل بأيديهم يسألونه عن الساعة ٠

فيجبهم دون ان يتوقف لحظة واحدة · خاطر مفاجىء يلح على نبيل كلما اقترب من مدخل القريـة · لو انه ذهـب أولا الى الحصاينة ربما باع كل المجلات التى معه ثم لا تبقى بعد ذلك أمام « ثريا » فرصة الاختيار الطويل فتضيع مفاجأتـــه لها بمجلاتهـا المفضلة · سوف تعتب عليه أن يأتى بعد كل هذه الغيبة الطويلة دون ان يحمل ماتحب من المجلات ·

مما لاشك فيه ايضا انه سوف يتأخر كثيرا فى القرية فالحاج مصطفى لن يتركه يتم رحلته هكذا قبل ان يحدثه طويلا عن حكاية الحاج رمضان وسوف يكون هناك آخرون يشاركونه فى سـماع الحكاية والتعليق عليها · ماذا لو انه ذهب أولا الى كفر الأمير وأجل المرور بالحصاينة لحين عودته ؟ واغمض عينيه وهو يمر أمام الكوبرى الموصل للقرية وضغط ساقيه فاستمرت الدراجة منطلقة باقصى سرعتها فى الطريق الزراعى الممتد الى كفر الأمير · وحين تجاوز القرية احس بموجة من الفرح تبلل نفســـه · واحس كأن الهواء الذى يدخل انفه ويلامس اذنيه ووجهه موسيقى حلوة · وبلا شعور وجد يده تمتد الى جرس الدراجة لتنغم لحنا ينسجم مع ذلك النغم الذى يردده قلبه ·· ولم تعد العجلة تسير فى خط مستقيم · كانت هى الأخرى ترقص مع النغم · وشيئا فشيئا كانت الحقول الممتدة الى نهاية الافق تتداخل وتقرب وتصنع اطارا اخضر لوجه فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ·· وجه ابيض كالزبد تشوبه حمرة خفيفة · ترقد فيه عينان كأنهما لطفل · كان هذا الوجه هو الذى جعل نبيل فى البداية يحس ان هـــاتين العينين لا يمكن ان تزجراه بنظرة قاسية حتى ولو اطـــال التحديق فيهمـــا · كانتا وديعتين تبتسمان لاقل شىء وتتخفض اهدابهما فقط حين يكـون هناك مالا تودان ان تراه أو تسمعه · أول ما ابصر هذا الوجـــه كان الباب ذو اللون البنى مواربا · وكان شقيقها الصغير يتحرك

حول الدراجة يحاول ان يضرب الجرس ·· ويتحسس اسلاك العجلة الامامية · اما هى فقد اخذت منه الجريدة وغابت قليلا لتعود بشلن تعمد هو ان يبحث طويلا عن فكته بينما تلتقط عيناه الحائرتان شيئا ما من صورة الفتاة الوحيدة فى هذه القرى التى ظهرت لتشترى منه جرائد · كان فى كل نظرة خاطفة يبصر شيئا ·· لون ثيابها ·· ملامحها ·· شعرها المضموم الى الخلف ·· وفى طريق عودته حاول ان يجمع هذه الأشياء التى بقيت فى ذاكرته ويصنع منها صورة للفتاة التى ابصرها فى كفر الأمير · لم تكن الصورة كاملة تماما · كانت هناك اشياء كثيرة ناقصة احس بها نبيل فى عودته · وفى الايام التالية كان يحرص على ان يحتفظ فى ذاكرته بصور هذه الأشياء الناقصة · لتكمل صورة الفتاة التى تؤنس عودته الطويلة كل يوم · ولم تكن « ثريا » تختلف بدورها عن سائر الناس فى هذه البلاد · كانت هى الأخرى شيئا بسيطا واضحا يكره ان يكون فى عالمه شيئا غامضا غير مألوف · لقد أصبحت تتحدث اليه وهى تقلب المجلات وتطلب منه ان يحضر لها بعض الكتب التى لا تباع الا فى المدينة وكان بعض هذه الكتب لاتحب ان يراه والدها · فكان يحضرها لها فى الخفاء واسعده جدا ان يكون بينه وبنها شىء خاص لايعرفه أحد حتى أبوها · الحاج الذى يحترمه الناس فى القرية ·· وهكذا لم يعد كل ما يفعله نبيل هو ان يتحدث الى صورتها فى خياله بل لقد أصبح يستعيد كلماتها ليسمعها ·· كلمة كلمة ·· واحيانا كثيرة كان يسمح لصورتها ان تقول له اكثر مما قالت فعلا ·· وكان يجعلها تكمل على هواه بعض العبارات الناقصة التى قطعها والدها ·· ولم تكملها هى لأى سبب ·· فهو لا ينسى ابدا يوم ان احضر اليها دون ان تطلب رواية لكاتب يعرف هو مدى تعلقها به دون ان تطلبها ·· لقد اشرق وجهها ببسمة حلوة وهمست وهى تضرب الهواء بكفها الصغير ·

ـ الله يانبيل ·· تعرف انك ·· ولم تكمل عبارتها فقد قدم والدها فى ذات اللحظة فلم تفعل أكثر من ان طلبت من والدها ثمن الرواية ··

لقد ظل اياما كثيرة يحاول ان يكمل تلك العبارة · وفى كل يوم كان لا يرضى كثيرا عن الكلمات التى يتخيلها ـ كان يشعر فى النهاية انها كانت ستقول كلمة أخرى أحسن بكثير من كل هذه الكلمات · وفى لحظة غريبة كاد ان يسألها عما كانت تود ان تقوله يوم قدم والدها لولا أنه كان يستحيل امامها شخصا آخر تماما ·

فى المدينة كان يعاكس البنات بدراجته · ويتبادل معهن الفاظا نابية احيانا · اما « ثريا » فقد كان يشعر أنها نوع آخر من البنات · ولم يحاول نبيل ان يفكر يوما فى حقيقة شعوره نحو « ثريا » انه فقط يسعده ان يراها كل يوم · ويتضايق جدا من تلك الايام التى يأخذ منه شقيقها الاكبر الجرائد دون ان تأتى هى وتأخذها · فيزعم لشقيقها ان بينه وبينها حسابا قديما ولا يأخذ نقودا فتأتى هى فى اليوم التالى لتعطيه نقوده لأنها وحدها التى تعلم انه لا حساب هناك كانت تسعدها اكاذيبه من غير شك ـ هذا ما احس به ـ فقد قالت له يوما « ليه بتكذب يانبيل ·· انت عارف ان مافيش حساب ولا حاجة ·· ليه الشقاوة دى » قالت ذلك وهى تدارى فى شفتيها بسمة خفيفة ·· ويصر نبيل على كذبته قائلا « ازاى ياست ثريا · والله الحساب عندى صحيح · انا مش عاوز ثمن الجرائد أنا عاوزك بس تيجى علشان تشوفى المجلات اللى انت عاوزاها · »

والواقع انه لم يكن يعرف تماما (ليه الشقاوة دى) ·

لقد كان يعرف انها مخطوبة لقريبها المدرس · كانت دبلة الخطوبة تطوق اصبعها الصغير · ولم يؤلمه ذلك كثيرا ·· ماذا لو

لم تكن مخطوبة ؟ انه من المستحيل ان يفكر فى ان يتزوجها يوما ٠٠ « دى بنت من عائلة كبيرة ٠٠ وهو راجل على قد الحال » ٠

ومع ذلك فلم يشعر ان حكاية الخطوبة هذه تنغص عليه شيئا من سعادته ٠ كان يحس ان ثريا شىء رائع جميل فى هذه المملكة الواسعة التى يقطعها كل يوم بدراجته ٠٠ أجمل شىء فيها على الاطلاق ٠ انها تحدثه بود كأنه أحد أقاربها ٠ ولا تضيق بمعاكساته حين يزعم ان الحساب قد وصل وكان يجد سعادة لاحد لها فى ان يعرف كل شىء عنها ٠ وكان يمكنه ان يجد عند الناس الكثير مما يود ان يعرف فالناس فى القرى يتحدثون كثيرا ودون ان يطلب منهم احد ذلك ٠ وادرك أخيرا انه ليس وحده الذى يهتم بانبـــاء ثريا فكثيرون من تلاميذ المدارس بكفر الأمير يشـــيرون اليها فى احاديثهم اشارات تلتقطها اذناه فى حرص واسعده جدا انها كانت موضع اعجابهم وانهم كانوا يتحدثون عنها بطريقة لا تضايقه بل واكثر من ذلك انه زاد من سعادته شعوره بأن فرصـــة لقائه مع ثريا لا تتاح لأى منهم ٠

***

من خلال الأشـــجار كانت مئذنة كفر الأمير تبدو كالعـادة مرتفعة تجتذب انظاره من بعد ٠ الطريق الزراعى بدأ ينحدر قليلا تجاه البلدة ٠ وراح الاطار الاخضر يتسع قليلا قليلا واوشك وجه ثريا ان ينسل من هذا الاطار الذى بدأ يتسع أكثر لتبرز فيه ملامح القرية بطرقاتها المتعرجة وقد برز منها عدة بيوت ذات طابقين ٠

وادرك نبيل ان عددا كبيرا من زبائنه فى كفر الأمير سوف يستوقفونه طويلا قبل ان يصل الى منزل ثريا وســـوف يمطرونـه بالاسئلة عن سر غيابه الطويل ٠٠ سوف يؤخره هذا طويلا بـلا

شك · يجب ان يغير طريقه المعتاد داخـــل القرية الذى يمر فيـه بدكاكين كثيرة حتى يصل الى منزل ثريا أولا · ويجب ان يسرع أكثر دون ان يستعمل الجرس حتى لا يلفت اليه انظار الاطفـــال بالذات · وبرغم ذلك كله كان عدد الاطفال الذين يلاحقونه يتزايد فى كل حارة ·· واصبح اسم نبيل صيحة تنتقل من فم كل الاولاد واضطر ان يهدىء من سرعته · لم تكن طرقات القرية ـ خاصة وانه لم يستعمل الطريق الرئيسى ـ خالية تماما فالحارات مليئة بالاطفال الصغار والدجاج ·· وبعض النســـوة يزحمن الطريق والعربات الخشبية تكاد تقفل الطريق احيانا · وانحرف الطريق قليلا قبل ان يستدير نبيل بالدارجة ليجد نفسه وجها لوجه امـام الباب البنى الداكن وبلا وعى هذه المرة امتدت يد نبيل تداعب جرس الدراجة فى نغم تعود ان يعلن به عن مقدمه امـام بيت ثريا ·· وفتح الباب ·· ولم يقو نبيل على مواصلة النظر الى الباب ، كان يود ان يسمع صوتها اولا ولكنه رفع رأسه حين وجد امامه شقيقها منير يحاول جاهدا ان يصل الى جرس الدراجة التى طال شوقه اليها ··

وركن نبيل الدراجة جانبا وراح يفك ربطة الجرائد والمجلات وعيناه ترقبان الباب بلهفة بالغة وراح يخاطب منير بصوت مرتفع ·

ـ ازيك يامنير ·· عاوز تركب العجلة ·· طيب انده اختك تاخد المجلات اللى عاوزاها وأنا اركبك ··

كان الصبى غارقا فى الاهتمام بالداجة التى استحوذت على لبه · فلم ينتبه كثيرا لنبيل ·· وعتب نبيل فى سره ·· ان ثريا لاتخرج للقائه بعد كل هذه الضجة ·· وفجأة جـــذب منير بقوة وسأله « نادى اختك ·· »

رفع منير رأسه الصغير وبدت فى عينيه نظرة اســـتغراب ويداه لا تزالان تضربان الجرس وقال بغير اكتراث :

ـ اختى .. ؟ اختى اجوزت وسافرت خلاص الشهر اللى فات .. ثم استدرك الصبى قائلا وفى عينيه ود برىء « دى كانت عاوزاك تيجى الفرح علشان تديلك حاجة حلوة من الفرح » ..

***

لم يذكر نبيل بدقة الوجوه التى رآها بعد ذلك .. ولاالكلمات التى سمعها ولا ماذا كان يقول .. لقد وجد نفسه بعد لحظات يقطع الطريق الزراعى بين الحقول ، طريق العودة ، وعيناه الساهمتان تجول فيهما نظرات واجمة .. ماذا جرى له ؟

لم يجرؤ على ان يوجه لنفسه هذا السؤال فى صراحة .. كان يعرف انها سوف تتزوجه ذات يوم .. ! كان يود ان يراه .. كان يتصوره دائما شابا انيقا جدا .. وغنيا ومؤدبا .

ورفع نبيل رأسه . وتلفت حواليه .. لاتزال امامه بلاد كثيرة عليه ان يمر بها . ان مملكته بدأت تفقد اجمل شىء فيها .. ؟ وداخله احساس سريع عابر بأنه يملك شيئا وهميا .. ان مملكته خرافة ولكن هذا الاحساس سرعان ماتبدد من نفسه ، انه لا يزال يملك الكثير . ماذا سيقول للحاج مصطفى ؟ كيف يمكن ان يجيب على اسئلته الطويلة التى لن تنتهى .. سوف يحس بنبرة الحزن فى صوته .. وملامحه .. سوف يخيل اليه ان نبيل قد فقد انسانا عزيزا .. سيسأله عن أمه . ودار بذهنه ان يقول له انها ماتت ، فقدها هذا الشهر . وارتاح لهذه الفكرة لأول وهلة ، سوف يتيح له هذا الا يتكلف شيئا فوق طاقته . ان يظل محتفظا برغبته فى هذا الصمت الحزين ..

وبين لحظة وأخرى .. والدراجة تقطع الطريق الزراعى الى قرية الحصاينة كانت يد نبيل تمتد احيانا الى جرس الدراجة لتوقع

عليه لحنا حزينا · وتتداخل المناظر الجانبية احيانا فى الحقول الخضراء لتصنع اطرا لوجه · وجه عروس · وفى اللحظات التى كان يختفى فيها وجه العروس كان يبرز وجه آخر ·· وجه الحاج مصطفى بملامحه الودودة الطيبة وفمه الذى توجد فيه اسنان قليلة ينفرج عن هذه الكلمات ·

ـ معلهش يا نبيل ·· أنا يابنى زى والـدك ·· ماتزعلش والست أم حسين زى والدتك تمام ·· وشعر نبيل بارتياح عميق نحو هذا الوجه واحس انه ينجذب اليه بقوة وانطلقت الدراجة تحمل نبيل الى حيث يوجد ·· وجه طيب وقلب يحنو عليه وفـم ودود يهمس فى اذنيه ·

ـ يابنى مش كده ، خد علشان خاطرى كمان كباية الشـاى دى ·· !